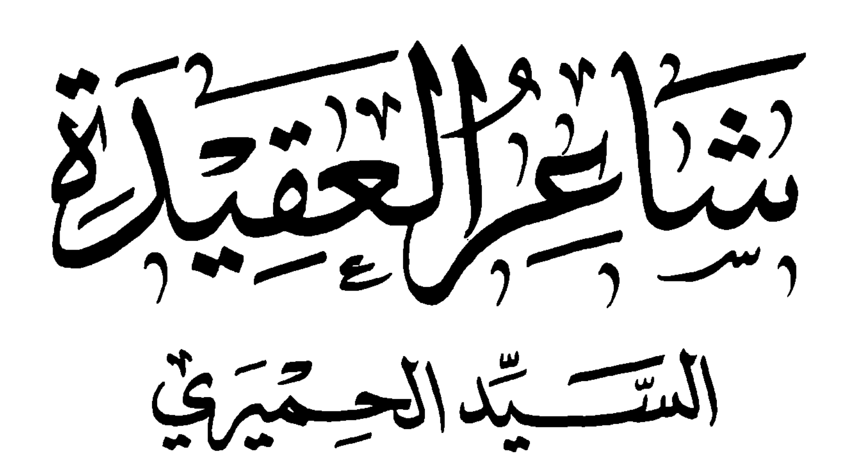
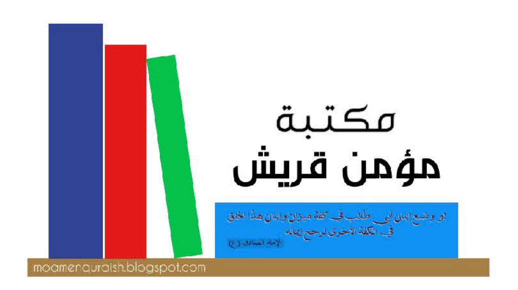

شاعر العقيدة
السيد الحميري
السيد محمد تقي الحكيم
المؤسسة الدولية للدراسات والنشر
مكتبة
مؤمن قريش



السيد محمد تقي الحكيم



الطبعَة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م





بيـــروت: مستديرة شاتيلا ـ قرب المعهد الفني الإسلامي
تلفـــون: ٠٣/٧٧٧٠٧٢ ـ ٠٣/٨٦٦٠٤٤ خليوي
فاكـــس: ٨٢٦٥٠٤ ـ ٠٠٩٦١١
ص. ب: ٨٦/ ٢٥ الغبيري

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد . .

فيشرّفني أن أقدم للقراء الكرام الطبعة الثانية من كتاب (شاعر العقيدة) إسماعيل بن محمد الحميري المعروف (بالسيد الحميري) تأليف سيدي الوالد السيد محمد تقي الحكيم عميد كلية الفقه بالنجف الأشرف بالعراق سابقاً، وعضو المجامع اللغوية العربية حالياً، تحقيقاً لرغبته وامتثالاً لأمره في التقديم.

وقد كتب سيدنا(دام ظلّه) كتاب «شاعر العقيدة» عام ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م يوم كان في العشرينات من عمره استجابة لطلب من السادة أصحاب سلسلة «حديث الشهر» العراقية حينها تلك التي يشرف عليها جملة من أعلام المفكرين، والتي أخذت على عاتقها كما يقول مؤسسوها «مهمة ربط الماضي المتحرك بالحاضر المعاش مازجة بين القديم والحديث بأقلام تمثل الأدب الحي الرفيع والرأي المجرّد الحرّ»، وكان ألقى بعض فصوله على مسامع أعضاء المجمع الثقافي لمنتدى النشر في النجف اوشرف، وتولّت طباعته مطبعة دار الحديث ببغداد.

ولقد تقاسم كتاب (شاعر العقيدة) قسمان: عرضَ القسم الأول منهما لحياة السيد الحميري المضطربة، فعرّف بولادته، ونشأته، ومعالم شخصيته، ومنابع ثقافته، وتبدّل عقيدته، وعلاقته بأئمته عليهم السلام، وصلته بخلفاء عصره من أمويين وعباسيين، وما صاحب تلك العلاقة وهاتيك الصلة من أحوال وظروف ومتغيرات وأمور وحوادث ومشاكل وغيرها.

وعرض القسم الثاني منه لفنّه الشعري، فعرّف بكمية شعره، وأسباب تبعثره، عارضاً آراء النقّاد من قدماء ومحدثين فيه، باحثاً مسألة الدخيل في شعره، معرجاً على خصائصه وميزاته، خاصّاً شعره الغنائي وأسلوبه القصصي بشيء من التفصيل، محللاً نماذج من قصائده من كل منحى طرقه.

ويلحظ قارىء الكتاب بوضوح قدرة كاتبه النقدية المبكرة، وتمكنه من أدواته الفنية، وطول باعه في دراسة الشعر، وعمقه في تحليل نصوصه في نسج يصفه صاحب سلسلة حديث الشهر بأنه «يشبه أن يكون لوحة مرّت عليها ريشة فنان، فبيّنت المعالم وأوضحت المغلق ثم وضعت النقاط على الحروف في كل مبهم أو شكل خلط فيه التاريخ أو أرسله بما فيه من علل ومتناقضات».

مدّ الله في عمر سيدي الوالد (دام ظله) وعافاه وأعانه ـ وهو تحت وطأة المرض ـ على وضع اللمسات الأخيرة على كتابه المهم «القواعد العامة في الفقه المقارن» إنه نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

عبد الهادي السيد محمد تقي الحكيم

٢١/ صفر/ ١٤٢٢هـ

١٥/ ٥/ ٢٠٠١م

أضواء

في حنايا الكتب التاريخية أسماء لامعة لفتت إليها أنظار المعنيين بجمع الأحاديث من معاصريها، فخصّوها بكثير من العناية والاهتمام، وربما وقف بعضهم عندها يتتبع أخبارها وحوادثها ليتخذ منها سمراً ملذاً يتناقلونه في النوادي والمجتمعات.

وناقلو الأحاديث بالطبع لم يكونوا ـ في وقت ما ـ متّحدين في العواطف والميول، ولم تكن الغالبية فيهم من أُولئك الذين يحسنون السيطرة على عواطفهم تماماً بحيث لا يتسرى مفعولها إلى ما ينقلون من أحاديث لتلونها بما تشتهيه هي لا بما يشتهيه واقع الحال.

وهذا ما يحسن أن نعلل فيه اضطراب التاريخ وتناقض أخباره وحوادثه، بالإضافة إلى ما تقتضيه طبيعة تداول الأحاديث وتنقلها من فم إلى فم من زيادة ونقيصة وتحوير وتحريف، تبعاً لحدود أفهام الناقلين وحسن تلقيهم لما ينقلون.

وشاعر العقيدة (السيد الحميري) الذي عُقدت لدراسة حياته وشاعريته هذه الفصول، كان من تلكم الشخصيات التاريخية التي كان لها في زمانها

شأن، وكانت كغيرها من ذويه عرضةً لتلاعب العواطف في تاريخها، وربما كان نصيبها أوفر من بعض الأنصبة في ذلك لعوامل عدة، قد يكون أهمها في نظر الباحث هو تعرضها لأخطر مركز عاطفي في النفوس (مركز العقيدة المذهبية).

وهذا ما يبعث في العواطف عادة جذواتٍ تلهبها حماساً وغيرة سواء كان ذلك من جانب المعارضين أو الموافقين، وعلى أي فتاريخه المتداول الآن من أكثر التواريخ تناقضاً وغموضاً ومن أشدها اضطراباً والتواءً وبخاصة فيما يتعلق به من أحاديث ربما تمتّ لعقيدته المذهبية ببعض الصلات.

وقد حاولنا ـ بما نملكه من معرفة وجهد ـ أن نكشف في هذه الفصول بعض ما علق في تاريخه من غموض واضطراب.

والذي نخاله أننا قد توصلنا إلى شيء من ذلك بفضل المنهج الذي سلكناه في التثبت من أسانيد الأحاديث وتحقيق نصوصها والتماس ملابساتها التي تُلقى على بعضها الأضواء في مجال المحاكمات، من عصر إلى بيئة إلى حوادث جزئية موزعة هنا وهناك. ولا نكتمكم أننا استعنّا على كشف معمياتها ببعض العلوم المحدثة كعلمَي النفس والحياة وكعلم الاجتماع ولم نتقيد فيها برأي مدرسة مخصوصة من مدارسها الشهيرة.

والكتاب بعد هذا موزّع إلى قسمين، يبحث القسم الأول منهما عن سيرته وحياته وقد تدرجنا بدراستها من بدايتها وأحطناها بملابساتها وربطنا بين حلقاتها، وربما أضفنا إليها حلقات لم يتعرض إليها المؤرخون وتقتضيها بعض مقتضيات الأحوال، وقد أشرنا إليها بلفظ بالطبع أو عادة أو ما يشاكلها من تعبيرات لتتسق لنا الصورة الفنية كاملة بما فيها من ألوان وظلال وربما أغفلنا من شؤونه ما لا شاهد أو شبه شاهد تاريخي عليه لئلا نقع بافتراضات قد تكون بعيدة عن الواقع.

وفي القسم الثاني حاولنا أن نجلي الناحية الفنية في شعره ما ساعدتنا الأوراق المخصصة لنا في هذه السلسلة وألحقناه بخاتمة أشرنا فيها إلى بعض ما اعتمدنا عليه من مصادر الكتاب.

أما بعد: فهذا جهد ضئيل نقدمه إلى القارئ ونحن على أمل أن يشرفنا بالموافقة على ما فيه من آراء ـ ما وجد إلى ذلك سبيلاً ـ أو بالتنبيه على ما فيه من أخطاء ربما وفّقنا إلى تلافيها في طبعته الثانية إن قُدر له ذلك.

ورجاؤنا الأكيد أن لا يعمد إلى قراءته قبل أن يتجرد عن مرتكزاته التي كوّنها لنفسه من مطالعاته في بعض الموسوعات القديمة أو الحديثة، فجناية هذه الموسوعات على الحقيقة من أعظم الجنايات لما مُنيت فيه من اضطراب.

وأنا أحدثهم ـ صادقاً ـ أنني تضايقت عندما دعيت إلى التحدث عنه وضايقني بالعذل كثير من أصدقائي لتأثير تلكم المرتكزات علينا، ولكنني مع ذلك أقدمت على البحث وخرجت وأنا بغير الذهنية التي دخلت إليها فيه.

وقد رأيت أن التاريخ ظلمه بإخفاء واقعه واستوى في ظلمه أنصاره الذين ضخموا شخصيته ورفعوها عن مستواها الطبيعي لها، وأعداؤه الذين حطوا منها وقربوها من الشخصيات الخرافية كما سيتضح كل ذلك من قراءتكم هذه الفصول.

القسم الأول

١ ـ قبيلتان .
٢ ـ ولادته ونشأته .
٣ ـ منابع ثقافته .
٤ ـ مع أبويه .
٥ ـ نوع عقيدته .
٦ ـ بعض معالم شخصيته .
٧ ـ مع الخلفاء والأمراء .
٨ ـ تبدل نوع العقيدة .
٩ ـ مع أئمته الجدد .
١٠ ـ في الكوفة .
١١ ـ مع الخلفاء أيضاً .
١٢ ـ على أبواب البعث .
١٣ ـ الحساب الأخير .

- ١ -

ويبدأ الاختلاف أول ما يبدأ في سلسلة نسبه فهو ـ لدى صاحب الأغاني ـ إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، وهو لدى القحذمي وابن عائشة: إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة مفرغ الحميري. فمفرغ لديهما لقب لربيعة لا والد له جاءه من تفريغه لعَسٍّ من لبن.

وهاتان الروايتان ـ ومعهما رواية الأصمعي وبعض المؤرخين ـ متفقتان على الارتفاع بنسبه إلى يزيد بن ربيعة الشاعر الحميري الشهير الذي أقذع في هجاء بني زياد ونفاهم عن آل حرب.

ولكن المرزباني ـ وهو العالم المحقق ـ يأبى أن يقر للجميع هذه النسبة، ويأبى إلا أن يكون يزيد هذا جدّاً لصاحبنا من طرف الأمهات. فأمه الأزدية هي ابنة لابنة هذا الشاعر الكبير، ويضيف إلى ما يقول أن يزيد هذا لم يعقب أولاداً ذكوراً ليصح أن ينتسب إليه صاحبنا من طرف الآباء.

ونسبُه بعد ذلك ـ فيما يرى ـ يرتفع إلى محمد بن يزيد بن وداع الحميري، وليس لدينا ما يعيّن أحد هذه الأقوال. وكل ما هنالك أمارات قد تكون في جانب ما يقوله المرزباني، فحجته في نفي الأولاد الذكور عنه لم نجد ما يدفعها لدى المؤرخين.

وانتساب شاعرنا إلى حمير لم نجد في نسابة العرب من يشكك فيه أو يغمزه، على كثرة من فيهم من أعدائه ممن يتطلبون له المغامز. بينما وجدنا من يطعن في نسب يزيد ويدفعه عن هذه القبيلة دفعاً، ولو كان جدّه من آبائه لتسرّى إليه الطعن في هذه النسبة ولوجد أعداؤه ما يشنعون به عليه، وهذا ما لم نجده فيما لدينا من كتب التاريخ.

ومهما يكن من أمر فليس لهذا الخلاف أهمية في نظر الباحث الحديث. فيزيد هذا إن كان في خصائصه الذاتية ما يمكن أن ينتقل بالوراثة إلى عقبه ويتسلسل إلى أولادهم، فنصيب السيد موفور منه على كل حال، وليجئه من أين شاء من طرف الآباء أو الأمهات. وإن لم يكن فيه ما يورث فلا يهمنا أن يكون جدّه من أي الأطراف، وحسبنا من هذه الروايات المختلفة أن تتفق على أنه من حمير ليصحّ لنا الادعاء بأنه حامل لخلاصة ما يمكن أن تورثه هذه القبيلة من صفات.

وحمير قبيلة عربية يمانية متأصلة في مجدها وسؤددها ومكانتها الاجتماعية بين القبائل، ولها من صفاتها العامة كالشجاعة والكرم وحماية الجار وأمثالها مما يتنافس عليه العرب إذ ذاك، ما يرفعها في أعين النسابة وفيها سراة مشهورون بهذه الصفات كانوا موضع أحاديث المؤرخين.

ومثل هذه القبيلة في أية بيئة عربية سابقة لا بد وأن تحدث في أنفس أفرادها ـ مع ما تورثها من صفات ـ اعتزازاً بما لها من شأن وتغنيا به، وقد تحدث عندهم ترفعاً عما لا يناسبها من صغائر الأمور، وهذا ما وجدناه كله في تاريخ السيد الحميري وسنرى أماراته فيما يأتي من أحاديث.

وشيء آخر قد يكون له أثر في اجتماعها فيه وهو انتسابه من طرف الأمهات إلى الأزد، فأمّه حدانية ترتفع بنسبها إلى حدان بن شمس بن عمر

الأزدي، وهـي تشتـرك مـع قبيلـة حميـر فـي عـربيتهـا ويمـانيتهـا ومجـدهـا وسؤددها، وتكاد لا تقل عنها شرفاً ومكانة. وقد اعتز شاعرنا في الانتساب إليها فذكرها في غير موضع من شعره وربما قرن بينهما في مجالات الفخر، فقال في بعضها:

إن تسـألينـي بقـومـي تسـألـي رجـلاً	فـي ذروة العـزّ مـن أحيـاء ذي يمـن
حـولـي بهـا ذو كـلاع فـي منـازلهـا	وذو رعيـــن وحمـــدان وذو يـــزن
والأزد. . . . أزد الأكـــرميـــن إذا	عـدت مفـاخـرهـم فـي سـالـف الـزمـن
بـانـت كـريمتهـم عنـي فـدارهـم	داري وفي الرحب من أوطانهم وطني

وإذا صحّ ما يقوله فيها عن أمه فهي من كريمات الأزد وربما كان أبوه من كرام حمير، وإلا فمن البعيد أن يخرج أهلها على العادة العربية التي تعتبر الكفاءة بين الزوجين فيزوجوها غير كريم. والذي يظهر من بعض شعره أن آصرته الخاصة كانت في مجمع الفضائل من هذه القبيلة وهذا ما يضاعف تركيز تلكم الصفات فيه.

ـ ٢ ـ

تزوج في البصرة في محلة حدان ـ محلة هذه القبيلة ـ وكان نازلاً في جوارها فيها، وربما كان لعلاقة الجوار أثر في هذا الزواج وانتقل بها إلى عمان لأسباب لم يذكرها المؤرخون، كما لم يذكروا جلّ ما يتعلق بهما من شؤون ربما كان لها التأثير في مجرى حياة ما لهما من أطفال. فلم نعد نعرف عنهما إلا ما يتعلق بعقيدتهما الأباضية المتطرفة التي تدين بكفر علي وبعض الصحابة كما يدين سائر الخوارج من أتباع عبد الله بن أباض رائد فكرتها الأولى.

وفي عمان ولد السيد الحميري فاستقبل أبواه ولادته بما يستقبل به عادة كرام الآباء ولادات أبنائهم من سرور وارتياح، ثم عمدا إليه على عادة العرب إذ ذاك فسمياه وكنياه ولقباه وتأنقا في ذلك كله، فاختارا منها ما تقبله الأذواق فكان يدعى من ذلك اليوم بإسماعيل ويكنّى بأبي عامر أو بأبي هاشم على اختلاف في الرواية، ويلقب بالسيد وهو لقب يدل على ذوق وحسن اختيار في أبويه.

أما زمن ولادته فقد اختلف فيه المؤرخون أيضاً، فرواية العباسة ابنته تحدده سنة ١٠٥ للهجرة، بينما تأبى عليها الرواية الأخرى هذا التحديد وترى أن تأخذ بيده إلى الوراء إلى ما يقارب ستين عاماً، فتجعل ولادته في خلال العقد الثالث من بعد الهجرة وفي طريق مكة بدلاً من عمان، ومن أبوين شيعيين لا خارجيين كما تُجمع سائر الروايات.

وهناك ملابسات قد تتقدم بعمره سنوات على عمره الذي حددته ابنته، كأن تذكر له أحداثاً لا تناسب أن تصدر عن صبي، وتاريخ زمن هذه

الأحداث معلوم لا يمكن أن نشك فيه. فإذا احتفظنا بتاريخ الأحداث وبالزمن المحدد من قبل ابنته كان علينا أن نحكم بصدورها عنه وهو صغير، وهذا لا يتناسب مع طبيعة تلكم الأحداث ولكن التشكيك في هذه الأحداث أيسر من التشكيك برواية العباسة لكثير من الاعتبارات، ولعلنا سنشير إليها في مظانها من أحاديثنا الآتية.

والرواية الثانية لا نستطيع أن نطمئن إليها بحال وأثر الوضع عليها ظاهر لمن قرأ قصتها في كتب المعاجز، ولولا أن يعتمد عليها بعض المؤرخين لما استحقت منا أي اهتمام، وحسبنا في عدم الاعتماد عليها أن تصطدم بأكثر تاريخ حياته وبما يصح منه لتواتر أخباره.

فأبواه بمقتضى ما تريد هذه الرواية شيعيان وهو مخالف لكثير من النصوص المتواترة في خارجيتهما، ومخالف لما أثر عنه من القول لراويته إسماعيل بن الساحر وقد جلسا في بيت أبيه يتغديان: «طال والله ما شتم أمير المؤمنين ولعن في هذا البيت»، يقول إسماعيل قلت: ومن يفعل ذلك؟ قال: «أبواي وكانا أباضيين». ثم هو مخالف لكثير من شعره الذي قاله في هجائهما لاختلافهما معه في العقيدة حتى عرّض نفسه للقتل، كما سنرى بعد حين. على أن هذه الرواية إذا أخذنا بها وبما يصح من الروايات الأخرى التي تستمر بحياته إلى ما فوق المئة والسبعين من الهجرة، فهي لا ترضى له من العمر بأقل من مئة وعشرين عاماً. وهو عمر لا يرضاه هو لنفسه بدليل ما حدد من عمره عند موته في قصيدة نعى بها نفسه إلى مجمع أهل الكوفة ببغداد، فقال:

يا أهل كوفان إني وامق لكم   مذ كنت طفلاً إلى السبعين من عمري

وعلى أي فهذه الرواية موهونة لا يمكن الأخذ بها بحال وإلا لأحتجنا أن نلتمس لصاحبنا تاريخاً غير هذا التاريخ وشعراً غير هذا الشعر، لعدم

تناسب ما بأيدينا من تاريخه وشعره لما حددته الرواية من زمان. وعلى هذا فرواية العباسة هي المعتمدة عندنا حتى الآن، وليس لدينا ما يوقفها من الروايات. وبمقتضاها فصاحبنا يكون من مواليد سنة مئة وخمس للهجرة، فلندرسه إذاً في ضوء هذا التاريخ من:

بداية حياته

وبدايته ـ فيما نعتقد ـ كبداية أي طفل يولد في ذلك العصر، فليس في خصائصه ما يميزه عن غيره ليُعنى بتسجيله المؤرخون، على أن مؤرخينا القدماء لم يعودونا البحث في أمثال هذه الخصائص الجزئية، وإلا فكم كان من المهم لو سجلوا لنا نوع تربيته الأولى ومدى ما لاقاه من تدليل أبويه وحدبهما عليه؟ وهل كان هو الوحيد لهما وكيف كان يعامل بالنسبة إلى غيره لو كان هناك غيره من البنين؟ مما يلقي كثيراً من الأضواء على أسرار حياته فيما يستقبل من أعوام. ولو كان ذلك لكان لنا في دراسة السير والتراجم في التاريخ شأن غير هذا الشأن.

وإذا كان التاريخ قد أغفل ذلك أو كاد فلا نستطيع أن نغفله نحن بجميع خطوطه، ودراستنا تكاد تتوقف عليه. فلنعمد إذن إلى استشارة ما بأيدينا من القواعد العامة لدراسة الأحداث لنستعين بها على دراسة هذا الطفل الصغير.

ولعل أهم ما ينفعنا في دراستنا هذه من ملاحظات ذوي الاختصاص ما يقولونه من أن الطفل ـ بحكم استجابته لغريزة التقليد والمحاكاة ـ يبدأ منذ بداية تمييزه عادة فيحاول أن يقلد أبويه في كل شيء يقع نظره منهما عليه، وربما اتخذ من بعضهما مثلاً أعلى يخصه بجملة محاكاته وتقليده لما يصدر منه من أعمال وأقوال.

وإذا صح هذا فمن الطبيعي أن يفتح طفلنا عينيه أول ما يفتحهما على أبويه، فيراهما يعملان ويقولان فيندفع معهما ليعمل ويقول لاعباً بهذه

الأقوال والأعمال لاهياً بها. وليس من البعيد أن تطرق فيما يطرق سمعه أسماء كان يحوطها أبواه بالإجلال والتعظيم، وأخرى بالتوهين والسباب. فكان في محاكاته تلك يجل ويعظم ويهين ويشتم من دون أن يدرك خطر ما يقول. وبهذا المقدار نستطيع أن نعلل خارجيته التي شاء أن يثبتها له بعض المؤرخين وهو صبي.

ويشبّ الصبي ويتدرج في السن فيدرج بأعماله وأقواله إلى خارج بيته إلى حيث يلعب لِداته من الصبيان ليشاركهم في ألعابهم وليشاركوه فيما لديه من لعب، وربما كان في أقواله وأعماله التي استوحاها من أبويه ما يدخل في نطاق تلكم الألعاب.

كانت نشأته بالبصرة ـ كما تحدث الرواية ـ وقد عاد به أبواه من عمان، وكانت البصرة إذ ذاك مرتاداً لأكثر أرباب الملل والنحل. ففيها الخارجي وفيها الأموي وفيها السنّي وفيها الشيعي، فيها من كل هؤلاء وغير هؤلاء. ولكن الظاهرة التي بدأت تنتشر بينهم إذ ذاك على الإجمال هي النقمة على الحاكمين الأمويين وعلى أعمالهم التعسفية الاستبدادية المكشوفة، وقد تولّى إدارة هذه الحركة دعاة سرّيون نشطون قد يكون أكثرهم من الشيعة التي تدين بولاء أهل البيت وترى أحقّيتهم بالخلافة.

وقد كانوا بحكم مهامهم منتشرين في أنحاء البلد، وما يدريك لعل بعض أولئك الدعاة كان من مجاوري هذين الأبوين. وليس من البعيد إذا صح ذلك أن يرتاد طفلنا الصغير بألعابه بعض تلكم البيوت، فتمتد إليه من بينها يد آسية تحاول أن تأخذ بيده، متدرجة ومن طريق غير مباشرة، إلى أن يترك هذه الأعمال والأقوال. وربما أوحت إليه بأعمالها وأقوالها أن يتجه اتجاهاً آخر لا يتفق مع اتجاهه الأول.

وهكذا وفي مرور الأيام وبعد بلوغه حدّاً يحسن التمييز فيه، يجد

الصبي نفسه على أبواب عقيدة تختلف عن عقيدة أبويه اختلافاً كبيراً. فهذا السباب الذي كان يثقل كاهليهما ليل نهار، لم يعد يجد له مبرراً من المبررات. وهذا التعظيم الذي كان يحاط به بعض الأشخاص من قبلهم، لم يعد يراه حقاً من حقوقهم لما قرَّ في نفسه من أنهم ليسوا أهلاً لذلك.

وربما يظهر أن تأثير هؤلاء الدعاة على نفسه كان خفياً جداً إلى حدّ لم يكن يعرف معه من أين جاءه التشيع. فقد كان يسأل بعد ذلك عن مصدر تشيعه، فيجيب غاصت علي الرحمة غوصاً ولا يزيد.

ونحن نعلم أن الرحمة لا يمكن أن تغوص غوصاً من دون أسباب، وهذا التعليل الذي ذكرناه ربما يكشف عن تلكم الأسباب أو عن نظائرها على الأقل. على أنا لا نمنع أن يكون قد علم بها ولم يحب لنفسه الإفصاح عنها لأمور كان يراها هو مانعة من الإفصاح.

وما أدري بماذا استقبل أبواه هذه العقيدة التي بدأت تظهر مخايلها على ملامحه تدريجاً حتى اكتملت لديه؟ أنا لا أشك في أنهما حاولا أول ما حاولا أن يردعاه عنها بأساليب غير فنية، فضاعف ذلك من تمكينها من نفسه وتمسكه بها كما ولّد لديه شيئاً من النفرة والاشمئزاز منهما. وربما حاول أن يقابلهما بالمثل بدافع طفولته الساذجة، فبعّد ذلك بينه وبينهما الشقة.

وبتكرر هذه القضايا لا بد وأن تتضاعف النفرة بين الطرفين مما يحبب له أن يتركهما أكثر ما يمكن لأمثاله تركهما، فيتركهما إلى أمد ثم يمسّه الجوع أو العطش فيعود إليهما من جديد. فكان لا يأوي إلى البيت في أكثر أوقاته ويقضي ذلك في التنقّل في المساجد.

وربما ضايقه الليل فبات في إحداها كما تحدّث ابنته العباسة عنه بذلك حيث تقول: «قال لي أبي: كنت وأنا صبي أسمع أبوي يثلبان

أمير المؤمنين عليه السلام فأخرج عنهما وأبقى جائعاً وأؤثر ذلك على الرجوع إليهما، فأبيت في المساجد جائعاً لحبي لفراقهما وبغضي إياهما حتى إذا أجهدني الجوع رجعت فأكلت ثم خرجت».

هذا وأنتم أعرف مني بتأثيرات هذا التشرد على نفسه الفتية وعلى سلوكه العام ولعلنا سنلمس ذلك فيما يأتي من أحاديث إن شاء الله.

ـ ٣ ـ

وهنا لا يفوتنا أن نقول: إن تأزم الحالة بينهما على النحو السابق كان ربما أفاده في تكوين حياته الثقافية من طريق غير مباشرة كان للصدفة فيها مجال مهم. فقد اقتضت أن تكون المساجد التي ألفها في بلده وأكثر الترداد عليها وربما بات فيها، مدارس حافلة بأساتذة فنّيين يتصدر كل أستاذ منهم حلقة من الحلقات المنتشرة في أنحائها يحدثها فيما يختص به من علم. فهذا شيخ يحاضر طلابه في النحو، وآخر يحدثهم بأحاديث رسول الله ﷺ ومسيرته وغزواته وما شاكل ذلك من شؤون، وثالث في تفسير القرآن، ورابع في الأدب والشعر، وخامس في الكلام إلى آخر ما كانت البصرة قد ألفته إذ ذاك من علوم وهي الحاضرة الثقافية الأولى من نوعها إذ ذاك كما يقولون.

وبالطبع كان هذا الصبي ـ كما تقتضي طفولته المتطلعة وذكاؤه النادر الذي يرتفع به عن مستوى أقرانه كما تدل عليه جملة أحاديثه ـ مما لفتته هذه الحلقات، فوقف عندها أول ما وقف لاهياً، ثم تجاوز حدود اللهو فوقف متطلعاً، ثم تجاوز حدود التطلع فوقف مستفيداً. وربما أطال الوقوف عند بعضها فوعى منها أكثر ما يمكن أن يعيه صبي صغير وبخاصة هذه التي كانت تعنى بأحاديث رسول الله ﷺ وما يتعلق منها على الأخص في شؤون عقيدته الجديدة، كأن يستمع لما يقولون في الإمام علي عليه السلام فيحفظه عن ظهر قلب، وربما اتّخذ منه سلاحاً يصول به على أبويه عندما يعود إلى البيت.

ويأتي فيما نرى بعد هذه في الأهمية لديه، حلقات الأدب والشعر لما كان يلمس فيهما من سحر يجذبان به النفوس وكانت البصرة عامرة الحلقات

بهما إذ ذاك. ففيها من رواة الشعر وحفظته ونقاده الخلق الكثير فكان يكبّ عليهما ويحفظ منهما أكثر ما يمكنه حفظه من قصائد القدماء والمحدثين وأحاديث المفاضلات الدائرة بينها.

وأنا لا أبعد أن يكون لقصائد امرئ القيس نصيب وافر في حفظه، نظراً لما يخصها نقاد البصرة به من الاهتمام. وقد صح عنهم ـ كما يحدث ابن سلام ـ أنهم أجمعوا على تقديمه على سائر الشعراء الجاهليين، وهذا مما يلفت نظر أمثاله من الصغار، فيستهويهم أكثر من غيره ويستأثر بالمكان الأول من نفوسهم كما تقضي بذلك العادة.

وبفضل هذه الحلقات ـ كما نرى ـ نستطيع أن نضيف إلى السبب السابق سبباً آخر في تركه للبيت في أكثر أوقاته يعود إلى هذه الهواية الجديدة التي ألفها بعد اشتداد أزمته البيتية عليه، وربما ساعدت هي على تلطيف الجو بينهما إلى حد ما.

فليس من البعيد أن يعود الصبي إلى بيته عندما يعود وهو مثقل بدروس الحلقات يتملاها ويتأمل في مؤدياتها تأملاً ربما يشغله عن التفكير في ملاحاة أبويه، وهذا بالطبع مما يخفف بعض تلكم الأزمة عن كاهليهما ويضاعف في إقباله على هذه الهواية والتفكير في كل ما يتعلق بها من أُمور، وربما صاحبه التفكير في ذلك حتى أسلمه إلى أحضان الرقاد لتستقبله الأحلام بنماذج من آثارها الجميلة.

قال علي بن المعتز: حدثني السيد قال: رأيت النبي ﷺ في النوم وكأنه في حديقة سبخة فيها نخل طوال وإلى جانبها أرض كأنها الكافور ليس فيها شيء فقال: أتدري لمن هذا النخل؟ قلت: لا يا رسول الله قال: لامرئ القيس، اقلعها واغرسها في هذه الأرض ففعلت.

وتسره الرؤيا فيقبل بها في الصباح على أبويه وكان قد تلطف جوهما قليلاً ـ ليقصها عليهما وليلتمس عندهما لها تعبيراً ـ ويقصها عليهما فلا يملكان لها شيئاً، ويضطرهما الأمر إلى أن يحملا ولدهما إلى مفزع الأحلام إذ ذاك، إلى ابن سيرين فهو وحده القادر على تعبيرها، ويشرع الصبي فيقصها عليه والشيخ يصغي باهتمام بالغ ويتمها، فيلتفت الشيخ إليه بعد جولة فكرية في مناسبات الكلام قائلاً: أتقول الشعر؟ فيجيبه الصبي : لا.

الشيخ: أما إنك ستقول شعراً مثل شعر امرئ القيس إلا أنك تقوله في قوم بررة أطهار. يقول الصبي: فما انصرفت إلا وأنا أقول الشعر.

وهذا التفسير ـ على ما فيه من غرابة ـ لا نستكثره على ابن سيرين ومن شاكله ممن يتصيدون التعابير عن الرؤى من أجواء الأحاديث ومناسباتها، كأن يلحظ في رؤيا صاحبنا إضافة النخيل إلى امرئ القيس وهو لا يعرف بالنخيل بل لا يعرف بغير الشعر، فلا بد وأن يكون المراد به الشعر، ثم يلحظ أمر النبي له بقلعه وغرسه فلا بد وأن يريد منه أن يقول شعراً وأن يقوله في الأرض الطيبة التي لا تكون رمزاً إلا للقوم البررة الأطهار. ولكن الغريب من أمره أنه استطاع به أن يضع يد صاحبنا على مفتاح شخصيته الشعرية فيهديه إليها من دون قصد.

ودلالة هذا الحلم ـ بعد ذلك على معاودة آثار تلكم الحلقات له وهو في المنام ـ أنه ربما لم يكن ليوفق إلى أن يتمثل له النبي ﷺ في حلمه لو لم يكوّن له قبل ذلك صورة ذهنية قد يكون لأحاديث الرواة فيها ظلال.

وامرؤ القيس لم يعاوده هو أيضاً لو لم يتمكن من نفسه بتكرره عليها بمروره على أمثال تلك الندوات الثقافية حتى يصح له أن يتغلغل في أعماقها. وبقية الحلم ربما تكون رموزاً اتخذها (لا شعوره) أداة للتعبير عن

بعض مكنوناته التي كون الصبي بعضها من هنا ومن هناك.

وأهم من ذلك في الدلالة على آثارها في نفسه مطلقاً أن تفسير ابن سيرين لم يكن ليستطيع أن يخلق منه شاعراً دفعة واحدة لو لم يكن معتمداً على رصيد ثقافي مهم يؤهله لذلك. وهذا لا يتأتى لأمثاله عادة من دون الاستفادة من أمثال تلك الندوات، وحسبنا من هذه الرؤيا التي أجمع على ذكرها مؤرخوه أن نستفيد أنه قال الشعر وهو صبي، كما تنص على ذلك رواية ابن المعتز في طبقاته لنستقبل له حياة جديدة عليه بعد أن أصبح في عداد الشعراء.

وأول ما نسجّله في ذلك أن شاعريته هذه كانت من أسباب مضاعفة بُعد الشقة بينه وبين أبويه. فقد أصبح هذا الصبي شاعراً يحسن أن يقول في المديح والهجاء ويحسن أن يصرف الكلام على وجوهه. فلا يهمه أن يقول في وجهة الخلاف بينهما شعراً يذاع أمره في الناس. على أن الحق يقتضينا أن لا نسارع بالحكم عليه قبل أن نعطيه النصف في ذلك. فقد سارع إليهما قبل أن يقول في هجائهما شيئاً باقتراح يخفف الأزمة بين الطرفين إلى حد ما مع احتفاظ كلٍّ بعقيدته يقول ـ فيما يحدث عنه ـ: «فلما كبرت وعقلت وبدأت أقول الشعر قلت لأبوي أن لي عليكما حقاً يصغر عند حقكما علي، فجنباني إذا حضرتكما ذكر أمير المؤمنين عليه السلام بسوء فإن ذلك يزعجني».

وهو حل مرضي لو لم تكن العقيدة هي مركز الخلاف وسبّ علي يقع لديهما من العقيدة في الصميم، على أن الأمر ربما يهون لو لم يكن المختلف معهما فيها هو ولدهما العزيز الذي كانا يرجوان له أن يشاركهما فيها على كل حال ليتقي بذلك أهوال يوم القيامة.

فهذه أُمه تخشى عليه أن يموت وهو على عقيدته فيدخل النار، فتسارع إلى إزعاجه بالعذل والتأنيب، وربما استيقظت في الليل فسارعت إليه تزعجه بما لديها من أنواع العتب وهي تقول ـ كما يحدث هو ـ: «إني أخاف أن تموت على مذهبك فتدخل النار فلقد لهجت بعلي وولده فلا دنيا ولا آخرة، ولقد نغّصت علي مطعمي ومشربي».

ولقد صوّر فيما بعد هذا المشهد العاطفي بقصيدة بليغة مؤثرة تصور الهوة بينهما أتم تصوير، يقول فيها:

وكم من شفيق لامني في هواهم ... وعاذلة هبت بليل تؤنب

تقول ولم تقصد وتعتب ضلة ... وآفة أخلاق النساء التعتب
وفارقت جيراناً وأهل مودة ... ومن أنت منهم حين تدعى وتنسب
فأنت غريب بينهم متباعد ... كأنك مما يتقونك أجرب
تعيبهم في دينهم وهم مما ... تدين به أزرى عليك وأعيب
فقلت: دعيني لن احبر مدحة ... لغيرهم ما حج الله أركب
أتنهينني عن حب آل محمد ... وحبهم مما به أتقرب
وحبهم مثل الصلاة وإنه ... على الناس من بعض الصلاة لأوجب

فهذه العاذلة التي تهب في الليل فتزعجه لا تقصد في عتابها (وآفة أخلاق النساء التعتب) وهي تسلك في ذلك شتى السبل، فتقول له بنغمتها العاطفية: أتترك أهلك وجيرانك وأهل مودتك حتى تكون بينهم غريباً يتباعدون عنك (كأنك مما يتقونك أجرب)، لأنك تعيبهم في أديانهم ويعيبونك في دينك. وهكذا تستمر في عتابها حتى يضطر إلى جوابها بشيء من الصرامة:

أتنهينني عن حب آل محمد ... وحبهم مما به أتقرب

ومع هذا فكيف ترجو لهما أن يستجيبا لطلب ولدهما فيكفا عن السباب، فها هما ذان يجلسان على عادتهما بعد صلاة الفجر ليكملا وردهما بالسباب فيسمعهما فلا يتمالك دون أن يهجوهما بأقذع الهجاء، يقول:

لعن الله والدي جميعاً ... ثم أصلاهما عذاب الجحيم
حكما غدوة كما صليا الفجر ... بلعن الوصي باب العلوم
لعنا خير من مشى فوق ظهر ... الأرض أو طاف محرماً بالحطيم
كفرا عند شتم آل رسول الله ... نسل المهذب المعصوم
والوصي الذي به تثبت الأرض ... ولولاه دكدكت كالرميم

ويظهر من هذه الأبيات أنهما تجاوزا بسبهما الإمام إلى آل

رسول الله ﷺ جميعاً، وما أدري ما كان وقع هذه الأبيات عليهما بالخصوص؟ وإن كنت لا أشك بأنهما تماديا بعدها في السب إلى حد لم يطق البقاء معهما فأرسل إليهما أبياتاً جاء فيها:

خف يا محمد فالق الأصباح وأزل فساد الدين بالإصلاح
أتسبّ صنو محمد ووصيه ترجو بذاك الفوز في الإنجاح

إلى أن يقول:

أغويت أمي وهي جَدّ ضعيفة فجرت بقاع الغي جري جماح

وهو في هذه الأبيات يحمل المسؤولية أباه وحده ويتلمس لأمّه الأعذار، فهي امرأة جد ضعيفة تستجيب لأقل إغواء وهو هو المسؤول عن إغوائها تأمل قوله:

أغويت أُمي وهي جد ضعيفة فجرت بقاع الغي جري جماح

ففيها خير صورة لضعف المرأة واندفاعاتها السريعة وراء عوامل الإغواء.

يقول محدث الحديث أنهما ـ عند وصولها إليهما ـ هدداه بالقتل، فاضطر لتركهما نهائياً واستجار منهما بجاره عقبة بن مسلم وكان من الشيعة ومن ذوي المكانة واليسار فيهم. فأجاره منهما ووهب له داراً وخادماً وفراشاً وقام بأموره حتى مات أبواه فورثهما، وبذلك انتهت الأزمة بينهما فلم نسمع عن السيد أنه تعرض لهما بعد ذلك بسوء شأن كرام الأبناء عادة.

وهنا نتساءل أكان لليد الآسية التي قربته من التشيع تدريجاً وتحدثنا عنها سابقاً علاقة بعقبة هذا؟ لا أبعد ذلك وإن كنت لا أستطيع الجزم به الآن فلنتركه إذن إلى بحث نوع هذه العقيدة التي ناضل عنها كل هذا النضال.

- ٥ -

وقبل أن نتلمسها في شعره من بين العقائد الشيعية التي كانت منتشرة إذ ذاك، يجب أن نمهد لها ببحث مختصر عن الفرق الرئيسية منها لتتضح لنا الفروق بينها عندما نصل إلى النتيجة.

والفرق الرئيسية في عصره كانت لا تعدو ثلاثة، يجمعها التظاهر بالولاء لأهل البيت وتفرق بينهما فوارق تختص بها كل واحدة على انفراد.

أولاها الفرقة الإمامية وهي التي تدين بإمامة علي عليه السلام بالنص ثم أولاده من سيدة النساء فاطمة إلى أن يبلغوا بهم الإمام الصادق عليه السلام إمام ذلك العصر.

وثانيها الكيسانية وهي التي تدين كالأولى بالنص على الإمام علي عليه السلام وتفرق عنها بالقول بإمامة محمد بن الحنفية.

وثالثها الزيدية وقد نشأت فكرتها متأخرة عن هاتين. ويقال أنها تفرق عنهما في تجويز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وهي تؤمن بإمامة زيد بن علي عليه السلام. وقد قيل أن من أتباعها المؤمنين بها عبد الله المحض وولديه محمداً وإبراهيم الثائرين على المنصور. وللنص على ذلك فوائد قد لا نعدمها في ما يأتي من أحاديث.

فإلى أية فرقة من هذه الثلاث كان ينتمي صاحبنا الحميري؟

الذي يجمع عليه المؤرخون أنه اعتنق أول ما اعتنق من بينها المذهب الكيساني. أما من أين جاءه هذا المذهب بخصوصه، فهذا ما أغفلوا ذكره بتاتاً وإن كانوا قد ذكروا لنا على الإجمال ما كان لهذه الفرقة من الدعاة الذين

نشطوا لبث فكرتها في البصرة وغيرها من البلدان إذ ذاك .

وإذا علمنا أن الدعوة العباسية السرية التي كانت تعمل تحت الستار، كانت ربما تميل بعض الميل إليها وتعمل لها من طريق غير مباشرة، ليسلم لها بعد حين أن الإمامة ربما تنتهي بالنص إلى قادة حركتها من طريق محمد هذا . وهم وإن جمجموا في دعوتهم تلك وغطوها باسم الرضا من آل محمد، ولكن ذلك لا يمنع من العمل لها دون غيرها من الفرق على الإجمال .

فليس من المستبعد أن تبلغه خطوطها الأولى من طريق أولئك الدعاة . وما يدريك لعل تلك اليد الآسية التي انتشلته من خارجيته ـ كما رأينا سابقاً ـ وهيأت جوه لقبول أية فكرة شيعية تفد إليه كانت من بعضها .

والكيسانية بعد ذلك فرق متعددة تختلف مع اتفاقها على إمامة محمد عدة اختلافات، يرجع بعضها إلى التقدم به في الإمامة إلى ما بعد الإمام علي بلا فصل، ويرجع الآخر إلى التأخر به عن أخويه الحسن والحسين عليهما السلام ، ثم تختلف بعد ذلك في الوقوف على محمد والإيمان بغيبته في جبل رضوى .

فبعضها يرى ذلك وبعضها الآخر لا يراه، ويرى أنه مات وأوصى ثم تختلف بالموصى إليه، وقد يعود ببعضها الأمر إلى الإيمان بالتناسخ والحلول وغيرهما من المبادئ التي لا يقرها الإسلام بحال .

فإلى أيها تعود فرقة هذا السيد الكريم؟ هنا يقع الخلط بين أرباب الملل والنحل، فبعضهم يجمجم فلا يشخصها من بينها كالشهرستاني في ملله، وبعضهم ينسبه إلى (الكريبه) أتباع أبي كرب الضرير، وهي القائلة بإمامة محمد بعد أبيه بلا فصل، كالرازي في (اعتقادات المسلمين) .

ولكن ابن حزم يأبى إلا أن يجره إلى الفرقة القائلة بالتناسخ والحلول

ويقلده في ذلك طه حسين في (ذكرى أبي العلاء).

أما نحن فقد يكون من الظلم له أن نتحكم عليه ما دام بين أيدينا إضمامة من شعره ربما تفصح عن تحديد مذهبه من بينها تمام الإفصاح، فلننظر ماذا تقول هي. إستمع إليه في هذه الأبيات التي يرويها أبو داود المسترق راويته فيما يحدث عنه:

ألا يـا أيهـا الجـدل المعنـي	لنـا مـا نحـن ويحـك والعنـاء
أتبصـر مـا تقـول وأنـت كهـل	نـراك عليـك مـن ورع رداء
ألا أن الأئمـة مـن قـريـش	ولاة الحـق أربعـة سـواء
علـي والثـلاثـة مـن بنيـه	هـم أسبـاطـه والأوصيـاء
فـأنّـى فـي وصيتـه إليهـم	يكـون الشـك منـا والمـراء
بهـم أوصـاهـم ودعـا إليهـم	جميـع الخلـق لـو سمـع الـدعـاء
فسبـط سبـط إيمـان وحلـم	وسبـط غيبتـه كـربـلاء
وسبـط لا يـذوق المـوت حتـى	يقـود الخيـل يتبعهـا اللـواء

ودلالة هذه الأبيات على عقيدته واضحة، فهو يرى أن الأئمة من قريش أربعة وهم (علي والثلاثة من بنيه) الحسن والحسين ومحمد، وهي - كما ترون - لا تتفق مع رواية الرازي القائلة بإمامته بعد أبيه دون أخويه، كما لا تتفق مع رواية ابن حزم الناسبة إليه القول بالحلول والتناسخ لإنهما من مذاهب غير هذه الفرقة من الكيسانية كما يتضح ذلك لكل من قرأ تاريخ المذاهب الدينية في الإسلام.

وقد ينسب بعضهم قسماً من هذه الأبيات إلى كثير، وهي أنسب بشعر السيد منها بشعره لحملها طابعه الشعري الخاص، ولو صح أنها أو قسماً منها لكثير لما غيرت في الحكم عليه شيئاً. فالرازي وغيره من مؤرخي الملل ينسبونهما إلى فرقة واحدة ويكفي في اتحادهما فيها أن يشتبه الرواة بنسبة شعر كل منها إلى الآخر.

وقد جلى عقيدته بالإمام الرابع في أبيات أُخر كان يُجيب بها كل من سأله عنها كما في فوات الوفيات:

سمي نبينا لم يبق منهم ... سواه فعنده حصل الرجاء
تغيب غيبة من غير موت ... ولا قتل وسار به القضاء
وبين الوحش يرعى في رياض ... من الآفاق مرتعها خلاء
فحل فما بها بشر سواه ... بعقوته له عسل وماء
إلى وقت ومدة كل وقت ... وإن طالت عليه لها انقضاء

فإمامه في هذه الأبيات ـ كما ترون ـ تغيب من غير موت ولا قتل وسار به القضاء من غير هذين الطريقين إلى رياض (من الآفاق مرتعها خلاء) وليس يرعى فيها معه غير الوحوش من الضباء، وفي عقوته عسل وماء يستعين بهما على قضية الوقت الذي لا بد وأن ينقضي (ومدة كل وقت وإن طالت يكون لها انقضاء). وهكذا وعلى هذه الوتيرة يجري سائر شعره الكيساني.

وقبل أن نختم هذا الفصل أحب أن أتساءل: أكان لاختياره هذه العقيدة ـ ذات الأماني المعسولة بإمكان أخذ حقه والقضاء على أعدائه ـ من دون سائر العقائد علاقة خاصة ببعض معالم شخصيته التي اشترك في تكوينها موقفه الصارم مع أبويه وموقفهما منه ثم حرمانه من عطفهما؟

قد يكون ذلك إذا ثبت تاريخياً أنه اعتنقها بعد هذه المشادة. هذا ولعل فيما سنتحدث به في بحثنا الآتي عن معالم شخصيته ما يلقي بعض الأضواء على ذلك.

والبحث عن شخصيته بجميع ما لها من عناصر فسيولوجية وبيولوجية وسيكولوجية ذاتية وموضوعية موروثة ومكتسبة، قد يكون ضرباً من المحاولات العابثة التي لا يجرأ على الإقدام عليها أي باحث مهما كان شأنه، لما بيننا وبينه من بعد الشقة وقلة الأنوار الكاشفة وضعف الملاحظة الدقيقة منه ومن معاصريه لجلّ ما يتعلق به من أُمور كلية وجزئية حتى إذا كنَّ خاليات من بريق يخطف الأبصار، ومع ذلك فكيف نرجو لأنفسنا أن نوفي البحث في جميع هذه الشؤون.

وما أدري أأعذر لدى القارئ الكريم إذا استعفيته من الدخول في هذا البحث الشائك الذي تتوقف على سلوكه جملة الأبحاث الآتية، أم يأبى عليّ إلا السلوك فيه ليتم له التسلسل الطبيعي في مصاحبته لهذا الكتاب؟

وإذا كان ولا بد من البحث فهل يسمح لي أن أسلك إليها من طريق ما سجله معاصروه من ملاحظاتهم الموضوعية على ما فيها من نقص، واستخراج ما نعثر عليه من معالمها فيها ثم الرجوع إلى بعض ملاحظاته الذاتية للاستعانة على ذلك؟

لا نظنه يبخل علينا به، فلندخل البحث على اسم الله إذن فنذكر مما سجلوه من ملاحظاتهم له أول ما نذكر هذا الوصف الدقيق لبعض:

صفاته الجسمية

فهو في ما شاهدوه تام القامة جميل الوجه مع سمرة محببة تميل به إلى السواد قد لا تخلو من ملاحة، رحيب الجبهة عريض ما بين السالفتين، في

أسنانه شنب وله وفرة ربما زادته جمالاً على جمال.

وليس فيما لاحظوه بعد ما يصلح أن يعد من المعائب الجسمية إذا استثنينا ما ذكروه من نتونه في أبطيه، وما اتخذه بعضهم من مداعبته له من سمرته التي قربت الشقة بينه وبين العبيد.

وإذا كان لبعض العيوب أن تحدث عقدة نقص في نفوس أصحابها كما يقول «إدلر» فتؤثر بها في سلوكهم العام، فهل يصح لهذين العيبين أن يحدثا شيئاً من ذلك في نفسه؟ لا أعتقد ذلك وإن كنت لا أمنعه، وإذا كان هناك بعض الأثر فقد أحسن تصريفه بالاعتراف به وبجعله موضعاً لتندره وتطرفه. حدث الحراني قال: كان السيد جاري وكان أدلم وكان ينادم فتياناً من الحي فيهم فتى مثله أدلم غليظ الأنف والشفتين مزنج الخلقة، وكان السيد من أنتن الناس أبطين وكثيراً ما كانا يتمازحان فيقول له السيد: أنت زنجي الأنف والشفتين، ويجيبه الفتى: أنت زنجي اللون والأبطين. وقد يتظرف السيد فينشد:

أعـــارك يـــوم بعنـــاه ريـــاح ... مشـــافـــره وأنفـــك ذا القبيحـــا
وكـــانـــت حصتـــي أبطـــي منـــه ... ولـــونـــاً حـــالكـــاً أمضـــى فضـــوحـــا
فهـــل لـــك فـــي مبـــادلتيـــك أبطـــي ... بـــأنفـــك تحمـــد البيـــع الـــربيحـــا
فـــإنـــك أقبـــح الفتيـــان أنفـــاً ... وأبطـــي أنتـــن الآبـــاط ريحـــا

وموضع التظرف في هذه الأبيات مما لا يخفى على القارئ الكريم. وإذا كان القارئ لا يقتنع معي بهذا المقدار من تصريفه بالتظرف ويراها مع ذلك قائمة في نفسه، فهل نستطيع أن نعزو إليهما ما لاحظوه عليه واشتهر به من صفات؟

ونعتبره من المواقف العلاجية التي اتخذها (لا شعوره) لتحبيبه إلى المجتمعات تعويضاً لذلك النقص الذي ربما تخيله منفراً للناس عنه، قد يكون ذلك وإن كنا لا نستطيع أن نجعله العامل الوحيد فيه ما دام لدينا ما يحتمل تأثيره عليه، كتشرده من أبويه وحرمانه من عطفهما ومحاولته جلب عطف مجتمعه عليه تلافياً لذلك الحرمان، وكطبعه المواتي وغيرهما من العوامل التي لو بحثناها والتمسنا شواهدها لخرج بنا الحديث عن القصد الذي أخذ علينا في تحرير هذه الرسالة.

ومهما تكن الأسباب فظرفه كان عنصراً فعالاً من عناصر شخصيته التي حببته إلى الناس، حتى صح لبعض معاصريه أن يتفانى في حبه لذلك وأن يبذل في سبيل معاشرته أثمن ما يملكه من أموال، وأن يتعرض من أجله إلى عذل زوجته الجميلة التي نافسها هذا الظريف على كثير من وقت زوجها، وقد أثار هذا العذل حفيظة السيد فقال في هجائها أبياتاً هي أقرب إلى الدعابة منها إلى الهجاء قال:

أقول يا ليت ليلى في يدي حنق	من العداوة من أعدى أعاديها
يعلو بها فوق رعن ثم يحدرها	في هوة فتدهدى يومها فيها
أوليتها في غمار البحر قد عصفت.	فيه الرياح فهاجت من أواديها
أوليتها قد دنت يوماً إلى فرس	قد شد منه إلى هاديه هاديها
حتى يرى لحمها من حضره زيماً	وقد أتى القوم بعد الموت ناعيها
فمن بكاها فلا جفت مدامعه	لا أسخن الله إلا عين باكيها

وقد سجل له المؤرخون عدة فكاهات حلوة كانوا يستملحونها له تدل على استحضار للنكتة وسرعة في الجواب. قال بعض المؤرخين: حاول رجل أن يتخذ من قوله بالرجعة موضعاً من مواضع التندر عليه فقال له:

بلغني أنك تقول بالرجعة، قال له السيد: صدق الذي أخبرك وهذا ديني، قال الرجل: أفتعطيني مهياراً بمئة دينار إلى الرجعة؟ قال السيد: نعم وأكثر من ذلك إن وثقت بأنك ترجع إنساناً، قال الرجل: وأي شيء أرجع؟ قال: أخشى أن ترجع كلباً أو خنزيراً فيذهب مالي.

وحدث إسماعيل بن الساحر راويته قال: تلاحى رجلان من بني عبد الله بن دارم في المفاضلة بعد رسول الله ﷺ فرضيا بحكم أول من يطلع، فطلع السيد فقاما إليه وهما لا يعرفانه، فقال له مفضل علي بن أبي طالب منهما: إني وهذا اختلفنا في خير الناس بعد رسول الله ﷺ فقلت علي بن أبي طالب، فقطع السيد كلامه ثم قال: وأي شيء قال هذا الآخر ابن الزانية؟ فضحك مَن حضر ووجم الرجل ولم يحر جواباً.

وأمثال هاتين الفكاهتين كثير في تاريخه، فليراجعها من أراد ذلك في الموسوعات وحسبك أن تعلم أنه كان من ندمان أبي دلامة الشاعر الفكه الشهير، وله معه نكات حدث عن بعضها إسماعيل راويته قال ـ والعهدة عليه ـ: كنت أسقي السيد الحميري وأبا دلامة فسكر السيد وغمض عينيه حتى حسبناه نام، فجاءت بنت لأبي دلامة قبيحة الصورة فضمها إليه ورقصها وهو يقول:

ولم ترضعك مريم أم عيسى ... ولم يكفلك لقمان الحكيم

ففتح السيد عينيه وقال:

ولكن قد تضمك أم سوء ... إلى لباتها وأب لئيم

وقد صح لبعض مؤرخيه أن يبالغ فيه فيقول: «وكان أظرف الناس».

ومن الحق أن نسارع فنذكر له أن ظرفه هذا لم يكن لينحدر به عن مستواه، فقد ظل موضع احترام وتقدير معاصريه حتى صح لبغضهم أن يبسط

له بساطاً في المسجد ليجلس عليه دون سائر الناس احتراماً لمقامه، كما تقول بعض الروايات. بل لم يكن الظرف هو كل بضاعته في سلوكه الاجتماعي، فهناك ظاهرة لاحظها المؤرخون عليه إن صحت فهي آية الآيات على سموّ شخصيته في مجتمعه، فقد قالوا عنه: «وكان إذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل في المجلس نصيبه من حديثه».

وهي موهبة لا تتأتى غالباً إلا لمن أثقل حقائبه بالتجارب المختلفة مع دقة فهم لعواطف وأمزجة جلّ من يجتمع بهم من الناس، ولكنه مع ذلك كان لا يطيق أن يطيل في مجاراة إخوانه إذا خلت أحاديثهم من النواحي التي تستأثر بمناغمة عواطفه العقيدية، كما يحدثنا هو عن نفسه في حديث الحسن بن علي بن حرب، قال: كنا جلوساً عند أبي عمرو بن العلاء فتذاكرنا السيد فجاء فجلس وخضنا بأحاديث الزرع والنخل ساعة فنهض، فقلنا يا أبا هاشم مم القيام فقال ـ محدثاً عن نفسه ـ:

إنـــي لأكـــره أن أطيـــل بمجلـــس　　　لا ذكـــر فيـــه لفضـــل آل محمـــد
لا ذكـــر فيـــه لأحمـــد ووصيـــه　　　وبنيـــه ذلـــك مجلـــس قصـــف رد
إن الـــذي ينســـاهـــم فـــي مجلـــس　　　حتـــى يفـــارقـــه لغيـــر مســـدد

والحق أن عقيدته كادت تمتلك من أوقاته في التحدث بها أكثرها، وربّما أقحمت نفسها في مواضع يوشك أن تفوت عليه باقتحامها اهتبال الفرص المواتية.

وفي كتاب الأغاني قصة ظريفة إن صحت ففيها بعض الدلالة على ذلك، وفيها مع ذلك مما يهمنا في بحث شخصيته دلالة على قوة جاذبيته وقدرته على التلاعب بالعواطف والميول، نذكرها هنا مع بعض ما تقتضيه من ملابسات، تسرية عن القارئ الكريم وتدليلاً على ما يملكه السيد في هذا الموضوع من كفايات.

قال محدث الحديث: كان السيد في سفر له واتفق أن كانت في الطريق فتاة أباضية من بني تميم عليها مسحة من جمال يملك النفوس، وكانت صحبة الطريق تقضي عليهما أن يجتمعا ويتحدثا وربما كان ذلك في أيام شبابه وعليه من وسامته ما يشجع أمثالها على الاجتماع والتحدث مع أمثاله، يتحدث معها بما اشتهر به من جمال الخطاب وحسن الألفاظ فيدبّ سحره إلى قلبها ساعة لتجذبه إليه وتستجيب هي إلى نداء قلبها فتطلب إليه الزواج وهما على ظهر الطريق، ويروعه هذا الاستعجال ولم يتم التعارف بينهما بعد فيعمد إلى فكاهة جميلة يستعين بها على موقفه بعد هذا الطلب، فيلقيها عليها بلهجته العذبة يقول: يكون كنكاح أم خارجة قبل حضور ولي وشهود.

وأم خارجة هذه اشتهرت بانقيادها لغريزتها الجنسية التي كانت تصرفها كيف تشاء، فكان الخاطب يقدم عليها فيقول وهو على ظهر راحلته: خطب، فتقول: نكح، فيقول: أنزلي، فتقول: أنخ.

وقد اتخذها العرب مضرباً لأمثالهم في سرعة الاستجابة. وتدرك بفطنتها دقة الفكاهة ومغزاها، فتضحك ثم تقول: ننظر في هذا وعلى ذلك فمن أنت؟ فيلتفت إليها قائلاً:

إن تسألني بقومي تسألي رجلاً في ذروة العزّ من أحياء ذي يمن

ثم يسترسل في إنشاد الأبيات (وقد تقدمت) إلى أن يبلغ هذا البيت الذي أبت العقيدة إلا أن تقتحم به هذا الميدان:

ثم الولاء الذي أرجو النجاة به من كبة النار للهادي أبي حسن

فتلتفت إليه ـ وقد شعرت بتأزم الحالة لبعد الشقة بينهما ـ وهي تقول: قد عرفناك ولا شيء أعجب من هذا، يمان وتميمية ورافضي وأباضية. تشير

إلى العداء المتأصل بين عنصريهما ومذهبيهما ومع ذلك ـ فكيف يجتمعان ـ.

هنا تبرز لباقته وقدرته على محاولة تلافي الموقف، فيقترح حلاً للمسألة من دون أن يتحول كل منهما عن عقيدته يقول: بحسن رأيك فيَّ تسخو نفسك ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً، ولكن هذا الحل لا يعجبها، أفليس التزويج ـ كما تقول له ـ إذا علم انكشف معه المستور وظهرت خفيات الأمور، ومع هذا فلا يؤمن على العلاقات الزوجية أن تدوم فماذا إذن؟

هذه بارقة أمل تلوح له فيعرضها عليها كحل نهائي للمشكلة يقول: المتعة التي لا يعلم بها أحد، ويصطدم هذا الحل بعقيدتها المذهبية. فهي ممن لا يرى المتعة محللة بعد نهي الخليفة عمر فتقول له: تلك أخت الزنا.

ويرى في هذا الجواب جرحاً لعاطفته ومهاجمة لمذهبه في حلبة المتعة، فيضطر إلى كشف الحقيقة ووضع يدها على مفتاح المسألة الشرعية بقوله: أعيذك بالله أن تكفري بالقرآن بعد الإيمان فإن الله عز وجل قال: ﴿**فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة**﴾ ويروقها استدلاله فتستسلم لاجتهاده وهي تقول: ألا تستخير الله وأقلّدك إن كنت صاحب قياس. ثم تقلده فتنتهي المشكلة وتنصرف معه إلى حيث يبيت بها معرساً كما تقول الرواية.

والذي يعجبني من هذه القصة بالإضافة إلى ما قدمناه استحضاره للنص الشرعي في مسألة المتعة مما يدل على اجتهاده ومعرفته بأصول استنباط الأحكام من أدلتها، وهي صفة ـ إذا صحت فيه ـ فإنها تضيف إلى عناصر شخصيته عنصراً هاماً يستحق الإكبار ويفتح أمام الباحثين باباً جديداً للولوج منه إلى جملة معارفه.

والحق أن عنصر الاجتهاد كاد أن يتغلغل في أكثر ما يملكه من علوم وبخاصة في الشؤون العقيدية التي أخذ على عاتقه التبشير بها والدعوة إليها بما يستطيع، ومعارفه ـ إذا استثنينا ما تقتضيه استقامة شعره من المعرفة باللغة والنحو وأمثالهما ـ تكاد تقتصر على جل ما يتعلق بهذه العقيدة سواء كان ذلك في الفقه أو الكلام أو التاريخ.

ولعل طبيعة التبشير نفسها اقتضته أن يعاود هذه الأمور بالبحث والاجتهاد، ليخلص له من كل ذلك ما يحقق أهدافه من أقرب طريق.

وأكثر ما يبدو هذا العنصر واضحاً في محاكماته للقضايا التاريخية الكبرى من طريق المناقشات مع من يختلف معهم في الرأي، كمناقشاته لسوار القاضي في أكثر من مجلس في شؤون الرجعة وغيرها مما سنذكرها في أحاديثه معه من هذا الكتاب وكمناقشته للكميت الشاعر الهاشمي في أمور فقهية وكلامية، ينتهي منها الطرفان بشهادة من الكميت له في الأعلمية سجلها على نفسه بقوله: «وأنت يا أبا هاشم أعلم وأفقه منّا».

وهي ـ إذا استطعنا أن نؤمن بصحتها ـ خير دليل على النبوغ المبكر لهذا السيد الكريم. فصدورها منهما ـ كما يقتضي تحديدها التقريبي ـ لا بد وأن يكون بعد بلوغه لسن الرشد بقليل على أكثر تقدير، ولولا خوف الإطالة والخروج عن القصد لذكرناها بطولها فلتراجع في المطولات.

ومن جميل المصادفات أن تكون الطريق الاجتهادية إلى العقيدة في ذلك العصر متيسرة للباحث في تلكم النوادي التي تحدثنا عنها سابقاً ونظائرها في سائر البلدان، وكأن العصر نفسه كان من أعظم المساعدين على ذلك لكثرة المذاهب فيه وانتشارها والتماس كل منها المؤيدات إلى عقيدتها من الكتاب والسنة والعقل بحرية تفرد بها أو كاد ذلك العصر لأسباب سياسية

معلومة تولدها الظروف الانتقالية غالباً.

ومثل هذه الحرية مما تولد عادة الرغبة والشوق في البحث والاستنباط لكل من يُعنى بأمثال هذه الأمور.

وقد سبق لنا أن عرفنا مبلغ اهتمامه بذلك ونزيد الآن أنه تحمل في سبيل تتبع المعارف والعلوم مشقة الأسفار في التنقل بين الحاضرتين الثقافيتين البصرة والكوفة. ومع هذا فلا نستكثر على عقليته أن ترتفع بملكاتها إلى مرتبة الاجتهاد.

وطريقته الاجتهادية في بحث المسائل فيما خلف لنا من آثار، أن يعرض إلى نقاط الخلاف، فيلتمس لها الأحاديث التي لا يختلف في صدورها الفريقان، ثم يلتمس دلالتها على ما يريد وربما أحاطها بملابسات تتجلى بها تلكم الدلالة على وجهها السافر.

فهذا حديث النص على الإمام من قبل النبي ﷺ الذي تمتاز بالإيمان به إحدى الطائفتين المسلمتين عن الأخرى ويكثر فيه الجدال، يسلك السيد إلى إثباته عدة طرق يعمد منها إلى التماسه في الأحاديث المتواترة لدى الجميع وإن اختلفوا بعد ذلك في دلالتها، كأن يرى فيها إخواننا من أهل السنة تسجيل الفضائل لعلي فحسب بينما يرى الشيعة في بعضها الصراحة التامة وفي بعضها الظهور في النص.

وأول هذه الطرق وأهمها حادثة الغدير التي تواتر فيها النقل جملة وتفصيلاً وحضرها سبعون ألفاً وقيل مئة وعشرون ألفاً.

ورواها ـ فيما وصل إلينا من كتب الحديث المعتبرة التي تبلغ في عددها أكثر من ثلثمئة كتاب ـ مئة من الصحابة الأجلاء أو تزيد بطرق أكثرها معتمدة موثوقة يصحح رواتها أرباب الجرح والتعديل.

وهذه الحادثة العظيمة في التاريخ أخذت من شعر السيد مأخذها فكان يذكرها جملة وتفصيلاً على اختلاف في المقامات، وربما صوّر جوها وأحاطها بملابساتها المأثورة التي توضح النص وتجليه.

ففي قصيدته العينية التي استأثرت بمكان الصدارة من شعره لدى أهل البيت وصارت مسرحاً لأحلام الكثيرين من أتباعهم ـ وخصّها أكثر من خمسة عشر باحثاً بالتأليف في شرحها ـ يبدأ فيذكر على سبيل التمهيد ما أثر عن بعض الصحابة من تكرار السؤال على النبي ﷺ عمّن يخلفه من بعده وتخوّف النبي من الإدلاء بشيء في هذا الموضوع يقول:

عجبت من قوم أتوا أحمداً ... بخطّة ليس لها موضع
قالوا له لو شئت أعلمتنا ... إلى من الغاية والمفزع
إذا توفيت وفارقتنا

ويعقب ذلك بإيضاح الدوافع النفسية ـ كما يراها لهذا التساؤل ـ فيقول:

وفيهم في الملك مَن يطمع.

ولكن النبي ﷺ يخشى من قومه إذا أخبرهم أن يصنعوا صنيع أهل العجل حين فارقوا وصي موسى فترك الجواب إذن أوسع له وأعذر. إسمعه كيف يصوّر ذلك:

فقلت لو أعلمتكم مفزعاً ... كنتم عسيتم فيه أن تصنعوا
صنيع أهل العجل إذ فارقوا ... هارون فالترك له أوسع

ويرى في جواب النبي ﷺ هذا بياناً لمن يعقل أو يسمع من الحضور وكما يبدو من قوله:

وفــي الــذي قــال بيــان لمــن كـــان إذا يعقـــل أو يسمـــع

ثم ماذا؟

ثـــم أتتـــه بعـــد ذا عـــزمـــة مـــن ربّـــه ليـس لهـا مــدفــع

بلـــغ وإلا لـــم تكـــن مبلغـــاً والله منهـــم عـــاصـــم يمنـــع

يشير بذلك إلى الآية التي نزلت ـ كما يقول جملة من المفسرين ـ لحث النبي على ذلك بقولها: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾**.

وفيها رفع لمخاوف النبي وعصمة له من الناس وبعث على تبليغ رسالته في علي وتحذير عن التأخر عن ذلك **﴿وإلا فما بلغت رسالته﴾** وهو أبلغ تحذير في مثل هذا المقام.

ثم ماذا بعد هذه التمهيدات؟ هنا يبلغ الشاعر النتيجة بتصويره لتلكم الحادثة:

فعنـــدهـــا قـــام النبـــي الـــذي كـــان بمـــا يـــؤمـــر بـــه يصـــدع

يخطـــب مـــأمـــوراً وفـــي كفـــه كـــف علـــي ظـــاهـــراً تلمـــع

رافعهـــا، أكـــرم بكـــف الـــذي يـــرفـــع والكـــف الـــذي يـــرفـــع

يقـــول والأمـــلاك مـــن حـــولـــه والله فيهـــم شـــاهـــد يسمـــع

مـــن كنـــت مـــولاه فهـــذا لـــه مـــولـــى فلـــم يـــرضـــوا ولـــم يقنعـــوا

ودلالتها على النص لديه بعد ذكره لتلكم المقدمات مما لا تخفى على القارئ الكريم، ومما يجب التنبيه عليه أنه اعتمد في نظمه على نص الروايات المأثورة في ذلك كله، وقد جلاها وحذف جملة من ملابساتها وأضاف إليها ملابسات أخرى في قصيدة لامية جاء فيها ذكره للنص تفصيلاً. إسمعه كيف يقول:

وجــاء مـــن مكـــة والحجيـــج قـــد صـــاحبـــه مـــن كـــل سهـــل وجبـــل
حتـــى إذا صـــار بخـــم جـــاءه جبـــريـــل بـــالتبليـــغ فيهـــم فنـــزل
وقـــم ذاك الـــدوح فـــاستـــوى علـــى رحـــل ونـــادى بعلـــي فـــارتحـــل
وقـــال هـــذا فيكـــم خليفتـــي ومـــن عليـــه فـــي الأمـــور المتكـــل
نحـــن كهـــاتيـــن وأومـــى بـــاصبـــع مـــن كفـــه عـــن اصبـــع لـــم تنفصـــل
ثـــم أدار كفـــه لكفـــه يـــرفعهـــا منهـــا إلـــى أعلـــى محـــل
فقـــال بـــايعـــوا لـــه وسلمـــوا الأمـــر إليـــه وأسلمـــوا مـــن الـــزلـــل
ألســـت مـــولاكـــم فـــذا مـــولـــى لكـــم والله شـــاهـــد بـــذا عـــز وجـــل
يـــا رب والِ مَـــن يـــوالـــي حيـــدراً وعـــاد مـــن عـــاداه واخـــذل مـــن خـــذل
يـــا شـــاهـــدي بلغـــت مـــا أنـــزلـــه إلـــيّ جبـــريـــل وعنـــه لـــم أحـــل

وكأنه لم يكتف باستفادته للنص في ذلك، فاستعان بفهم الصحابة الذين بايعوا له بعد الخطبة وهنأوه وقال له قائلهم: «بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

فذكر حادثتهم للدلالة على ما يريد، إسمعه:

فبـــايعـــوا وهنـــأوا وبخبخـــوا والصـــدر مطـــوي لـــه علـــى دغـــل

وهذه القصة بجميع نصوصها وخصائصها التي نظمها، مضامين لأحاديث موثوقة لدى أكثر فرق المسلمين. ومن أراد التوسع في ذلك فليراجع كتاب الغدير للعلامة الأميني للوقوف على رواتها والكتب المروية فيها ونصوصها، فهو أوسع وأصح دليل على جميع ذلك، راجع: الجزء الأول من ذلك الكتاب.

وفي القصيدة المذهبة ـ وهي من عيون قصائده التي عنى بها النقاد ـ يجمل هذه الحادثة ثم يشير من طرق خفية إلى حكم العقل بعصمة الإمام

وهو دليله في إيمانه بها، إسمعه يقول:

وبخم إذ قال الإله بعزمة ... قم يا محمد في البرية فاخطب
وانصب أبا حسن لقومك إنه ... هاد وما بلغت إن لم تنصب
فدعاه ثم دعاهم فأقامه ... لهم فبين مصدق ومكذب
جعل الولاية بعده لمهذب ... ما كان يجعلها لغير مهذب

تأمل قوله: «ما كان يجعلها لغير مهذب»، ففيها لفتة بارعة إلى امتناع أن يجعلها لغير المهذب من الناس ليصلح أن يقوم مقامه في جميع الأمور. وهكذا يجري سائر شعره في الغدير الذي يتجاوز فيما لدينا منه ثلاثين قصيدة ومقطوعة.

وإذا دل حديث الغدير بمنطوقه على النص على الإمام كما يرى، فهناك أحاديث تدل بدلالتها الالتزامية ـ كما يقول أهل المنطق ـ على ذلك. فهو يعرض لكثير منها في ثنايا شعره، كحديث المنزلة والثقلين وآية المباهلة وأمثالها مما سنعرض لبعضه في حنايا أحاديثنا الآتية.

وحتى في كيسانيته تلك التي تحدثنا عنها سابقاً وقربنا أنه تلقاها من طريق الإيحاء، عاودها بالبحث عن أدلتها وانتهى إلى صحة اعتناقه لها كما حدّث بذلك الإمام الصادق في قصيدة بعثها إليه يشرح فيها أسرار اعتناقه لهذا المبدأ، يقول:

وما كان قولي في ابن خولة مطنباً ... معاندة مني لنسل المطيب
ولكن روينا عن وصي محمد ... وما كان ـ فيما قال ـ بالمتكذب
بأن وليّ الأمر يفقد لا يرى ... سنين كفعل الخائف المترقب

فحجته في مقام الثبوت ـ كما يعبر الأصوليون ـ أن الرواية التي صحت عن الإمام علي عليه السلام وصي محمد صلى الله عليه وآله وسلم صريحة في غيبة ولي الأمر

سنين. ثم ماذا بعد ذلك، انظر النتيجة:

فلما رأوا أن ابن خولة غائب ... صرفنا إليه قولنا لم نكذب
وقلنا هو المهدي والقائم الذي ... يعيش بجدوى عدله كل مجدب

فالمسألة إذن مسألة اجتهاد، لأن الرواية الأولى تنص على غيبة إمامه، والرواية الثانية تقول أن محمداً قد غاب ولم تحدث عن غيبة غيره، فإذن تسلم له النتيجة أنه هو الإمام فليصرف القول إليه غير مكذب وليتم له اعتناق هذا المذهب بخصوصه حتى يبدو له ما ينقض إحدى مقدمتيه.

وختام القول في ذلك أن الرجل كان ـ فيما يبدو لنا ـ مجتهداً في أغلب ما طرقه من مباحث عقيدته وكان يضم إلى اجتهاده أهم العناصر المقومة له:

عنصر الواقعية

وهو من عناصر شخصيته التي لاحظناها في جل ما يصدر عنها من الأعمال، فهو طالب حقيقة لا يهمه أن يعتنقها إذا واتاها الدليل، وليس عليه بعد ذلك أن يختلف معه من يختلف، وأن يتحمل في سبيل صراحته فيما يراه ما يتحمل ما دام قد اجتهد فوصل إلى ما وصل إليه.

ودلائل واقعيته فيما يقول ويعمل متوافرة في جملة أحاديثه، وحسبنا منها أن يعارض في بداية حياته أبويه حتى يكاد يسلم نفسه إلى القتل في سبيلها، وأن يتعرض إلى مقابلة السلطة الزمنية في أيام الأمويين بنقده لأعمالهم وتشنيعه عليهم وتحسيسه للشعور العام وتهيئته للثورة.

ثم تعرض للوشايات عليه لدى خلفاء بني العباس تارة، ولدى بعض موظفيهم كسوار ونظائره الذين هموا بقتله مرة أخرى، كما سنعرف جملة ذلك فيما يأتي من أحاديث.

ثم عدم خضوعه للمغريات من قبل أبي بجير الإمامي العقيدة ووالي المنصور على الأهواز الذي حاول أن يحمله على اعتناقه لمذهبه فما استطاع، على أنه كان بوسعه أن يجاريه في محاججاته ليضاعف له الأموال ولكنه لم يفعل كل ذلك احتفاظاً بعقيدته، بل لم يتنازل عنها إلا بعد أن تيسرت لديه الدلائل الكافية على ذلك، وسنرى في موضعه من هذا الكتاب كيف عدل عنها إلى مذهب الإمامية.

بقي البحث عن شاعريته مما يتعلق بمعالم شخصيته ومنابعها الأولية. وقد آثرنا أن نختم بها هذا الكتاب ليصح للقارئ الكريم أن يشترك معنا في تكوين فكرة عنها، بعد أن نقدم له في ثنايا بحوثنا هذه أكثر ما نستطيع تقديمه من شعره ليكون حكمنا معاً عليه مستنداً إلى الدلائل اللازمة الكافية في أمثال هذه المقامات.

ولعلنا بعد ذلك نتفق مع القارئ فيه، وإذا اختلفنا كان اختلافنا عن روية وتبصر تقتضيهما ضرورة إصدار الأحكام. وجل ما نقوله الآن أن شاعريته كانت من أهم المظاهر اللامعة لشخصيته التي اتّسع صيتها باتساع شهرته حتى أصبحت مضرباً للأمثال، وكان هو يراها أشعر من غيرها ما عدا العبدي.

نقول ذلك لنخلص من هذا البحث إلى بحث علاقاته مع معاصريه من خلفاء وغيرهم من ذوي النفوذ في ضوء هذه الشخصية بجميع معالمها التي لفتتنا من بين ما بحثناه من مخلفات ما لاحظه عليه مؤرخوه أو لاحظه هو على نفسه من آثار.

- ٧ -

وعلاقاته الاجتماعية وبخاصة مع الخلفاء وذوي المكانة من معاصريه لم تكن لتجري على وتيرة واحدة ما دام أمرها يختلف باختلاف نزعاتهم السياسية والعقيدية. فقد كان بعضها بالنسبة إلى مبادئه الكيسانية لا يتفق معها بحال وربما كان يرى من واجبه أن يعمل على تقليص نفوذها جهد المستطاع وأن يتجاهر بذلك، وبعضها لا يتفق معها ولا يرى في وجودها خطراً على مبادئه ليعمل جهده على حربها، وبعضها الثالث قد يرى فيها ذلك، ولكن بعض مبادئه ـ التي اعتنقها أخيراً ـ تحتم عليه أن يجاملها في ظاهر الحال ما وجد إلى ذلك ضرورة، فعلاقاته على هذا متفرعة إلى فروع ثلاثة يبدأ أولاها:

مع الأمويين

الذين أدرك بشبابه شيخوخة دولتهم التي فقدت من حماتها حنكة الشيوخ وأصالة رأيهم وقدرتهم على ضبط شؤونها الداخلية، وقد كان لها من سياستها «الميكا فيلّية» الوصولية التي كانت تبرر في سبيل السلوك إلى غاياتها أية وسيلة دنيئة، ما يحسس الرأي العام ويحفزه إلى نقد أعمالها والنقمة عليها، فإذا صادف مع ذلك تحدياً لشعوره وعدم مبالاة برغباته تهيأ جوه للثورة عليها مع أول ثائر ينهض.

وهذا ما يعلل كثرة الناهضين عليهم من القادة الشعبيين والعاملين على تقليص نفوذهم تحت الستار، على أن كثيراً من الناس ـ ومنهم صاحبنا ـ كانوا لا يقرون لهم خلافة ولا يرونهم أهلاً لها مع وجود أربابها الشرعيين من أهل البيت، وربما عزا شابنا الكيساني ومعه فرقته أسرار غيبة إمامه إلى

تحكمهم في البلاد وشدة ضغطهم على أهلها وعلى المصلحين منهم أمثاله، ومع ذلك فكيف نرجو لهم أن يكفوا عن العمل على حربها جهد ما يستطيعون، وبالفعل فقد ابتعد صاحبنا عن ملوكهم وأمرائهم مع أنه شاعر لا يستغني عن أموالهم.

وبدأ يعمل مع العاملين على تهيئة الرأي العام لقبول أية ثورة يقوم بها مصلح من المصلحين، وبخاصة وأنه كان ينتظر ويأمل أن يكون القضاء عليهم من طريق إمامه الغائب الذي لا بد وأن يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. إسمعه وقد استسلم إلى حلم من أحلام يقظته الذي تلاحقت فيه الصور العائمة في ظلال من الآمال، كيف يصور ذلك أجمل تصوير:

كأنا بابن خولة عن قريب	ورب العرش يفعل ما يشاء
يهز دوين عين الشمس سيفا	كلمع البرق أخلصه الجلاء
تشبه وجهه قمراً منيراً	يضيء له إذا طلع السناء
فلا يخفى على أحد بصير	وهل بالشمس ضاحية خفاء
هنالك تعلم الأحزاب أنا	ليوث لا ينهنهها لقاء
فندرك بالذحول بني أمي	وفي درك الذحول لهم فناء

فهو - كما ترون - يتمثل في حلمه إمامه وبيده سيفه وهو يلمع كالبرق (أخلصه الجلاء) - تأمل أخلصه الجلاء فهي عبارة شاعر - وقد شرع يهزّه دوين عين الشمس فلا يخفى أمره على أحد (وهل بالشمس ضاحية خفاء) ثم ماذا أيها السيد؟

هنالك تعلم الأحزاب أنا	ليوث لا ينهنهها لقاء

وتتحقق النتيجة فيدركون بالذحول بني أمية (وفي درك الذحول لهم

فناء). وفي قصيدة أخرى يستنهض إمامه وقد استبطأ نهوضه فيخاطبه فيها بقوله:

ألا قـل للـوصـي فـدتـك نفسـي ... أطلـت بـذلـك الجبـل المقـامـا
أضـر بمعشـر والـوك منـا ... وسمـوك الخليفـة والإمـامـا

وأهم ما كان يعمله في هذا السبيل أن يعمد إلى نقاط الضعف فيهم فيتخذ منها أداة للتشنيع عليهم.

فهذا زيد بن علي يثور في الكوفة على ظلمهم وامتهانهم لأحكام الاسلام، فيقتلونه ويحرقون جثته ثم يصلبون رأسه.

فيتخذ من هذه الحادثة التي فقد أبطالها كل عاطفة إنسانية يتحلى بها بشر، أداة للتشهير بها عليهم من طريق رثائه بقصيدة يذكرها له المؤرخون.

وقد يستعرض قضية الحسين فيرثيه بأفجع رثاء مثير، وهذا غاية ما قرأناه في تاريخه من مقابلة للأمويين.

أما الاشتراك مع العباسيين في ثورة دموية كما اشترك غيره من الشيعة، فهذا ما لم نجده في التاريخ. وقد نستطيع أن نعزوه إلى ادّخار قواه لظهور إمامه الذي كان يعتقد أنه لا بد وأن يظهر في وقت من الأوقات وتتم الثورة.

ويقضى على الأمويين ويستخلف أبو العباس السفاح فيبدأ الفرع الثاني لعلاقاته مع:

بداية العصر العباسي

وهنا ما يكون موقفه من هؤلاء الولاة الجدد وكيف يجب أن تكون علائقه بحكم مبدئه معهم؟

إن مبادئه الكيسانية لا تمنع من ولايتهم ما دامت تدعو إلى إمام غائب لم يحن وقت ظهوره، بعد ولو ظهر لكان أولى من هؤلاء من أبناء عمه. وما

يدريك لعلهم يتنازلون له ما داموا قد حصلوا عليها من طريق ادّعائهم النص من قبله عليهم لو قدر له الظهور.

وماذا يمنع من الاتصال بهم وأخذ جوائزهم وهم من بني هاشم، وبنو هاشم بالنسبة إليه كلهم على حد سواء ويكفيهم فضيلة القضاء على أعدائهم الأمويين، فليتصل بهم إذن وليبارك لهم خطوتهم الموفقة ليحترس في مديحهم فيطري بني هاشم جميعاً ريثما يبدو له من أعمالهم ما يستحق التسجيل. فمديحه إذن لهم لم يكن عن تقية كما يرى الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء[1].

ويقصد شاعرنا إليهم فيحضر خطبة لأبي العباس وقد سبقت شهرته إليه فعززت موقفه عنده، ويتم الخليفة خطبته فينهض شاعر الهاشميين ليقول:

دونكموها يا بني هاشم	فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها لا علا كعب من	كان عليكم ملكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجها	لا تعدموا منكم لها لابسا
لو خير المنبر فرسانه	ما اختار إلا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة	لم يتركوا رطباً ولا يابسا
ولست من أن تملكوها إلى	مهبط عيسى فيكم آيسا

وتهزّ هذه الأبيات قلب الخليفة فيطرب لها وتأخذه النشوة فيسارع إلى استحسانها، ثم يقول له: يا إسماعيل سلني حاجتك. ولم تكن حاجة إسماعيل إذ ذاك إلا أن يكون سفير خير بينه وبين قريبه سليمان بن حبيب بن

---

(١) ص٣٠٧ ج٢، وقد اضطرب عليه بحثه فناقض نفسه بعد هذا الموضع من الكتاب راجع ص٣١٧ ج٢.

المهلب الأزدي. وكان صديقاً له أثيراً عنده وقد حدث شيء من سوء التفاهم بينه وبين الخليفة، قال: ترضى عن سليمان وتولّيه الأهواز.

ولمكانة السيد لديه ومحاولة جذبه إلى حضيرتهم أسرع إلى تلبية الطلب وكتب العهد بذلك ودفعه إلى السفير فأقبل به إلى زميله وهو يردد:

أتينـــاك يـــا قـــرْم أهـــل العـــراق	بخيـــر كتـــاب مـــن القـــائـــم
يـــوليـــك فيـــه جســـام الأمـــور	فـــأنـــت صنيـــع بنـــي هـــاشـــم
أتينـــا بعهـــدك مـــن عنـــده	علـــى مـــن يليـــك مـــن العـــالـــم

وتسرّ هذه البادرة غير المحتسبة هذا الزميل فيندفع نحو زميله ونشوة الفرح تملك عواطفه وهو معجب بغيرية هذا السيد الكريم، فيقول له: شريف وشافع وشاعر ووافد ونسيب، سل حاجتك. وهنا يتأنق السيد في الطلب فيختار ما يملأ حاجات نفسه جميعاً ويقدمها إليه في قائمة:

١ ـ جارية فارهة جميلة ومن يخدمها.

٢ ـ بدرة دراهم ومن يحملها.

٣ ـ فرس رائع ومن يسوسه.

٤ ـ تخت من صنوف الثياب ومن يحمله.

وهذه الطلبات على كثرتها لا يراها صاحبه شيئاً إذا قاسها بما أسداه إليه من جميل ويرى حقه فوق ذلك فيجعلها جراية له في كل عام.

ولعل في هذا المقدار من المال الذي أغدقه عليه ما يؤخره عن كثرة التردد على السلطان مع ما له من شغل في العمل على التبشير بمبادئه. فلم نعثر له على نشاط كبير بعد هذا في أيام السفّاح، وقد كاد ينحصر نشاطه الاجتماعي في:

فقد اتصل به اتصالاً وثيقاً ومدحه في عدة قصائد كانت لها المكانة في نفسه، كما اتصل بقسم من ولاته وكان له مع بعضهم أحاديث ذات شجون.

وسنعرف من مجموع ذلك أن السيد لم يتعد الحدود التي جعلها لنفسه من الصراحة وعدم المواربة في سلوكه العقيدي، بل لم يكن ليحتاج إلى المواربة ما دام لا يدعو إلي إمام قائم يوشك أن ينازع ذوي السلطان سلطانهم. وماذا يضيرهم من دعوة لا تمس مركزهم السياسي ولا تقدم أو تأخر في ميدان القضايا العامة.

على أن ضرورة تركيز سلطانهم كانت تدعو إلى استمالة النفوس بإعطائها الحرية في اختيار ما ترتأيه ما لم يعارض ذلك شأناً من شؤونهم الخاصة.

والاحتفاظ بمثل السيد من الدعاة وضمّه إلى شعرائهم ثروة لا يعد لها في ميزان الاعتبار ـ ما يجنونه من كمهم لفمه وخنقهم لحريته ـ وهذا ما يمكن أن نعلّل فيه إغضاء السلطة عنه، حتى في موارد تعرضه لبعض نقاط الضعف فيهم التي ربما تؤثر على سير ما يريده الحاكمون في البلاد كما سنرى بعض دلائل ذلك.

وبالفعل فقد كسب السلطان بمجاملته داعياً يحسن الدعوة برائق شعره لتعزيز مراكز ذوي الأمر في البلاد، وإن كان في مديحه كما قلنا لم يتعد ما رسمته له عقيدته المذهبية من حدود.

والشعر الذي بين أيدينا في مدائح المنصور لا يبلغ في مقطوعاته وقصائده العشر، وهو قليل بالنسبة إلى المدة التي قضاها معه والذي يغلب

على ظني آن المؤرخين لم يسجلوا الكثير منه، وإلا فليس من المعقول أن يعاصر المنصور ولا يكثر من مديحه مع أنه أولاه كل عنايته واهتمامه واحتفظ له بمكانة يحسد عليها من بين الشعراء.

والقصائد التي حفظها المؤرخون تحوم فكرتها في الغالب حول ناحية أو ناحيتين، هي التنديد بالأمويين والتخلص إلى مديح بني هاشم الذين هم وفّقوا إلى إعادة حقهم إليهم بعد أن عبث فيه أعداؤهم الألداء. أما المديح للمنصور خاصة فقلما نجد له ذكراً فيما لدينا من شعر.

فهذه قصيدته الميمية التي هي من غرر قصائده يبدؤها بالتعرض للأمويين وظلمهم بأبيات يتخلص منها إلى مديح الهاشميين فيقول:

جزعت أمية من ولاية هاشم	وبكت ومنهم قد بكى الإسلام
أيمت نساء بني أُمية منهم	وبنوهم بمضيعة أيتام
إن يجزعوا فلقد أتتهم دولة	وبها تدول عليهم الأيام
ولهم يكون بكل شهر أشهر	وبكل عام واحد أعوام
يا رهط أحمد إن من أعطاكم	ملك الورى وعطاؤه أقسام
ردّ الوراثة والخلافة فيكم	وبنو أمية صاغرون رغام

وهكذا إلى أن يخلص إلى بلائه الحسن في مديح أهل البيت منذ صباه فيقول:

أوذى وأشتم فيكم ويصيبني	من ذي القرابة جفوة وملام
حتى بلغت مدى المشيب وأصبحت	مني القرون كأنهن تغام

ويظهر أن هذه القصيدة كان مفعولها عظيماً في نفس المنصور، فقد كان يطلب استعادتها منه في مختلف المناسبات، وربما كان يحفظ قسماً منها عن ظهر قلب كما يبدو من حديث جعفر بن سليمان، قال: كنا عند

المنصور فدخل عليه السيد، فقال له: أنشدني قصيدتك التي تقول فيها (وأنشد كثيراً من أبياتها) فأنشدها السيد.

يقول محدث الحديث: فرأيت المنصور يلقمه ويقول: شكر الله لك يا إسماعيل حبك لأهل بيته. ثم قال: يا ربيع إدفع إلى إسماعيل فرساً وجارية وغلاماً وألف درهم واجعل الألف له في كل شهر.

وهنا أرجو أن تتذكروا أن هذه الجائزة كانت من المنصور «الدوانيقي» وأنها لم تكن الأولى فقد قرئت القصيدة قبل هذا عليه وقد أجازها في وقتها كما تقضي العادة لتدركوا مدى تأثير هذا الشعر على نفسه.

وهناك قصيدة ميمية أخرى كان لها نفس المفعول فيها وكان يطلب استعادتها منه. قال الحرث بن عبيد الله كنا عند المنصور فأمر بإحضار السيد فحضر، قال: أنشدني مدحك لنا في قصيدتك الميمية التي أولها:

أتعرف داراً عفى رسمها ....

ودع التشبيب فأنشده:

فدع ذا وقل في بني هاشم ... فإنك بالله تستعصم
بني هاشم حبكم قربة ... وحبكم خير ما يعلم
بكم فتح الله باب الهدى ... كذاك غدا بكم يختم
ألاَم وألقى الاذى فيكم ... ألا لائمي فيكم ألوم
ومالي ذنب يعدونه ... سوى أنني بكم مغرم
وأني لكم وامق ناصح ... وأني بحبكم معصم

إلى أن يقول:

جعلت ثنائي ومدحي لكم ... على رغم أنف الذي يرغم

يقول الحرث: فقال له المنصور: «أظنك أوديت في مديحنا كما أودى حسان بن ثابت في مدح رسول الله ﷺ، وما أعرف هاشمياً إلا ولك عليه حق»، والسيد يشكره وهو يكلمه بكلام من وصفه ما سمعته يقول لأحد مثله.

وهذه المكانة سواء كانت مصطنعة (وهو ما أبعده) أو كانت حقيقية كما تقتضيه العادة، كانت موضع عناية لديه. فلم يكن يستطيع أن يقتحمها عليه أحد على الرغم من كثرة من حاول من حساده والواشين عليه ذلك، فهذه أحاديثه:

مـدحنـا المـدح ومـن نـرم نصـب بـالـزفـرات
فـاكفنيـه لا كفـاه الله شـرّ الطـارقـات

(وفي رواية الفصول المختارة تتمة حكايتها).

قال سوار ـ وقد حاول أن يرمي آخر سهم في كنانته ـ: إنه يقول بالرجعة (وهي علم على بعض الفرق الشيعية) ويتناول السلف بالوقيعة.

قال السيد ـ وقد جرأه إقبال المنصور عليه ـ: أما قوله: إني أقول بالرجعة، فإني أقول بذلك على ما قاله الله تعالى: ﴿**ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون**﴾[1]، وقد قال في موضع آخر: ﴿**وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا**﴾[2]، فعلمنا أن ههنا حشرين أحدهما عام والآخر خاص وقال سبحانه: ﴿**ربنا أمتنا اثنتين وأحيينا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل**﴾[3]، وقال الله تعالى ﴿**فأماته الله مائة عام ثم بعثه**﴾[4]، وقال الله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف**

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٣) سورة غافر، الآية: ١١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾[1]، ثم يعقب ذلك فيقول: فهذا كتاب الله، وقد قال رسول الله ﷺ ـ وهو دليله من السنة ـ: يحشر المتكبرون في صور الذر يوم القيامة، وقال عليه السلام: لم يجر في بني إسرائيل شيء إلا ويكون في أمتي مثله حتى الخسف والمسخ والقذف، وقال حذيفة: والله ما أبعد أن يمسخ الله كثيراً من هذه الأمة قردة وخنازير، فالرجعة التي أذهب إليها هي ما نطق به القرآن وجاءت به السنة ـ ثم يرى في صاحبه تخاذلاً عن جوابه فيصول عليه بما يضاعف تخاذله من طريق الفكاهة يقول ـ: وإنني لأعتقد أن الله تعالى يردّ هذا ـ ويومىء إلى سوار ـ إلى الدنيا كلباً أو قرداً أو خنزيراً أو ذرة، فإنه والله متجبر متكبر كافر.

قال محدث الحديث: فضحك المنصور من هذه النتيجة. ثم أنشد السيد في تصوير الحادث أبياتاً جاء فيها:

جاثيت سواراً أبا شملة ... عند الإمام الحاكم العادل

فقال قولاً خطأ كله ... عند الورى الحافي والناعل

ماذبّ عما قلت من وصمة ... في أهله بل لج في الباطل

وبان للمنصور صدقي كما ... قد بان كذب الانوك الجاهل

يبغض ذا العرش ومن يصطفي ... من رسله بالنير الفاضل

ويشنأ الحبر الجواد الذي ... فضل بالفضل على الفاضل

ويعتدي بالحكم في معشر ... أدوا حقوق الرسل للراسل

فبين الله تزاويقه ... فصار مثل الهائم الهائل

وهنا يطلب إليه المنصور أن يكف عنه، فيقول السيد: يا أمير المؤمنين، البادي أظلم يكف عني حتى أكف عنه، ويقول المنصور لسوار: لقد تكلم بكلام فيه نصفة، كُفّ عنه حتى لا يهجوك.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

وهي حادثة إن صحت ففيها كشف عن أدلته الاجتهادية في الرجعة، ولعلنا سنقف منها في ما يأتي من احاديث.

وفي رواية أن الخليفة طلب إليه أن يعتذر من سوار، فذهب السيد إليه يعتذر فما أجاب على اعتذاره ولا قبله منه، فأنشد شاعرنا إذ ذاك هذه الأبيات الرائعة:

أتيت دعي بني العنبر ... أروم اعتذاراً فلم أعذر
فقلت لنفسي وعاتبتها ... على اللوم في فعلها أقصرى
أيعتذر الحر مما أتى ... إلى رجل من بني العنبر
أبوك ابن سارق غز النبي ... وأمك بنت أبي جحدر
ونحن على رغمك الرافضون ... لأهل الضلالة والمنكر

وأظن القارئ الكريم يدرك معي مدى روعتها الفنية وبخاصة في هذا البيت:

أيعتذر الحر مما أتى ... إلى رجل من بني العنبر

وإذا صح للقدماء أن يرفعوا أو يضعوا شأن بعض القبائل لمجرد سماعهم لبيتٍ للفرزدق أو لجرير فيها، فما أجدر هذا البيت أن يكون من تلكم الأبيات.

ومع تركز العداوة بينهما بعد هذا، فكيف نرجو لسوار أن يترك شأن صاحبنا دون أن يلتمس منافذ للوقيعة به؟ فها هو ذا يبلغه أن السيد قد تطاول بقصيدة له على أنس بن مالك الصحابي الذي تناسى فضيلة للإمام علي فدعا الإمام عليه، فيقول سوار: ما يدع هذا أحداً من الصحابة إلا رماه بشعر يظهر عواره ثم يأمر بحبسه فيحبس.

ولكن الهاشميين والشيعة الذين هم في البصرة يسمعون بهذه الحادثة، فيخرجون متظاهرين حتى يبلغوا القاضي فينذرونه بكسر الحبس إن لم يطلق لهم شاعرهم، وهم يقولون: ايمتدحك شاعر فتثيبه ويمتدح أهل البيت شاعر فتحبسه، فيضطره ذلك إلى إطلاقه ويطلق فيرسل إليه قصيدة يقول فيها:

قولا لسوار أبي شملة   يا واحداً في النوك والعار
ما قلت في الطير خلاف الذي   رويته أنت بآثار

وهي الحادثة التي قال فيها الشعر وأنكر تناسيها على أنس الذي أُصيب بالبرص لذلك كما يحدث الرواة، وهذا يؤيد ما قلناه قبل من أنه كان يتوخى الفضائل التي يتفق عليها الفريقان للتشهير بها على مخالفيه وإلزامهم بالحجة.

وإذا أخفق سوار في هذه المرة فلم يستطع الوقيعة فيه، فليعمد إلى حيلة أخرى يوقعه فيها فيعد شهوداً عليه بالسرقة ليقطع يده، ويبلغ السيد ذلك فيطير ويفزع إلى المنصور فيعزله من قضاء البصرة في رواية ومن القضاء له أو عليه فقط في رواية أخرى، ويبقى السيد مأمون الجانب طليق اللسان.

ومن الطريف حقاً أن تصاب البصرة بمحل فيخرج قاضيها بالناس للاستسقاء ويصعد المنبر ويتجه إلى القبلة ليدعو الله، فيرفع السيد يديه ويدلاً من أن يدعو بالأدعية المأثورة يرفع يديه فيدعو بهذين البيتين:

إهبط إلى الأرض فخذ جلمداً   ثم ارمهم يا مزن بالجلمد
لا تسقهم من وابل قطرة   فإنهم حرب بني أحمد

وتشيع هذه الأبيات فتبلغ جعفر بن سليمان فيقول له: يا أبا هاشم ما هذا الدعاء الذي بلغني عنك؟ ويقول: هو كما بلغ الأمير والله ما أرضى

لمبغض أهل البيت إلا بحجارة من سجيل منضودة، فيضحك منه.

وتأتي خاتمة الوشايات وهي آخر ما يملكه في هذا الميدان، وذلك أن سواراً يبلغه أن السيد قد اعتنق المذهب الإمامي وهو مذهب لا تميل إليه السلطة بحال لدعوته إلى إمام قائم ـ وهو الصادق في ذلك الزمان ـ فيسرها في نفسه للوقيعة به.

ويقدم المنصور البصرة فيسرع إليه بها، ويقول له بحضوره فيما يقول: مع أنه كثير التنقل في المذاهب وبالأمس كان على رأي الكيسانية، وهو اليوم يرى رأي الإمامية، ويهول المنصور ذلك فيلتفت إلى السيد قائلاً: ما تقول يا أبا هاشم؟ وهنا تبرز صراحته فيأبى أن ينكر أو يستخذي إمامه، بل يأبى أن يكلمه بغير الحقيقة فيقول له: كنت أرى رأي الكيسانية في ابن الحنفية، فلما صح عندي إعظام محمد لعلي بن الحسين وانقياده له ملت إلى علي بن الحسين عليه السلام، فهل تعلم في الأرض من هو خير منه فأميل إليه وأتركه.

وهي صراحة لا بد وأن ينقطع عندها سوار.

وتظل هذه العداوة قائمة حتى يموت سوار فيلاحقه السيد بهجائه إلى القبر، وتشاء الصدفة أن يحفر له فيقع الحفر في موضع كنيف كما تقول الرواية فيستغلها موضوعاً جديداً لهجائه فيقول فيه:

يا من غدا حاملاً جثمان سوار	من داره ضاعناً منها إلى النار
لا قدس الله روحاً كان هيكلها	فقد مضت بعظيم الخزي والعار
حتى هوت قعر برهوت معذبة	وجسمه في كنيف بين اقذار
لقد رأيت من الرحمن معجبة	فيه وأحكامه تجري بمقدار
فاذهب عليك من الرحمن بهلته	يا شرّ حيّ براه الخالق الباري

وتشاء الصدفة أن يموت عباد بن حبيب المهلبي فيقيم الازديون ـ وهم

أعداء بني تميم قبيلة سوار ـ مأتماً له ويرثيه السيد ويبدأ رثاءه بتلكم الأبيات في هجاء سوار ويعطيها للنوائح ليقلنها في المآتم ويقلنها فتشيع، وبهذا تنتهي هذه الجولة ويبقى أحد الخصمين وحده يؤدي رسالته التبشيرية على أتم ما يريد.

ولكن بعض الروايات حاولت أن تحد من نشاطه العقيدي منذ:

ثورة إبراهيم

فقد حدثوا أن المنصور طلب إليه أن يقتصد في مديح الطالبيين لئلا ينتفع أبناؤهم بذلك فيكونوا لانفسهم من الشيعة أبطال ثورة جديدة ربما أحدثت المشاكل في طريق الحكومة القائمة وعهده بتلكم الثورة غير بعيد، وربما اعتبر لشعر السيد أثراً في تهيئة جوها في البصرة.

فقد نهض إبراهيم بمئة ألف سيف من مقاتلتها وهي لا تتهيأ عادة إذا لم تسبقها دعوة واسعة بأساليب مختلفة قد يكون فيها لشعر السيد نصيب، وإن كان يغلب على ظني أن المنصور لم يتهمه بسوء النية ورائده في ذلك أنه لم يشترك مع إبراهيم في الثورة مع أنه لم يعرف عنه الجبن في مجالات النضال العقيدي.

وربما كان عذر السيد في التأخر عنه اختلافه معه في مذهبه، فإبراهيم ـ فيما يقال ـ يميل إلى الزيدية والسيد كيساني، ولكل منهما مبادئ خاصة قد لا تتفق مع مبادئ الآخر ومنها الثورة. فالإمام عند إبراهيم هو الذي ينهض على من يختلف معه في العقيدة بالسيف، والمنصور لا يوافقه بعقيدته بالإضافة إلى نقضه لبيعتهم بالأبواء، فلذلك كان لثورته موضع عليه اما الكيسانية فإمامها غائب.

مع الأباضية

وعلى رأسهم عبد الله بن أباض وهم ألدّ أعدائه وأشدهم وقعاً على نفسه. تدلّنا على مدى ما حاولوه في ذلك وما كان نصيبهم من الإخفاق الذريع.

وسبب ذلك ـ فيما يحدثون ـ أن السيد كان ـ بحكم ولائه لأهل البيت ورسالته التبشيرية في ذلك ـ ينقم عليهم سبهم في الخفاء للإمام علي عليه السلام كما ينقمون عليه هذا التفاني في ولائه، فكانت بينهما مناوشات كلامية هددوه على أثرها بالوشاية عليه عند المنصور بما يوجب القتل كما تقول الرواية.

ولكن ماذا يهم السيد من وشايتهم وقد سجل له المنصور عليه وعلى كل هاشمي حقاً، فليتحداهم إذن بإرسال علوية خالدة من علوياته إلى رئيسهم عبد الله ولينقضها عليه إن كان يملك في هذا السبيل شيئاً من البيان. قال محدث الحديث فكتب إليه السيد رحمه الله:

لمن طلل كالوشم لم يتكلم	ونؤى وأثار كترقيش معجم
ألا أيها العاني الذي ليس في الأذى	ولا اللوم عندي في علي بمحجم
ستأتيك مني في علي مقالة	تسوؤك فاستأخر لها أو تقدم
عليّ له عندي على من يعيبه	من الناس نصر باليدين وبالفم
عليّ أحب الناس إلا محمداً	إلي فدعني من ملامك أولم

وبعد هذه العاطفة الثائرة وهذا الموقف الدفاعي عن إمامه أرسل إليه بعدة الدفاع: روايات مأثورة لا تقبل الشك والجدال في صحتها إذ ذاك لينظر بما ينقضها عليه يقول:

علي وصي المصطفى وابن عمه وأول من صلى ووحد فاعلم
علي هو الهادي الإمام الذي به أنار لنا من ديننا كل مظلم
علي ولي الحوض والذائد الذي يذيب عن أرجائه كل مجرم
علي قسيم النار من قوله لها ذري ذا وهذا فاشربي منه واطعمي
علي أمير المؤمنين وحقه من الله مفروض على كل مسلم
لأن رسول الله أوصى بحقه وأشركه في كل فيء ومغنم
وزوجته صديقة لم يكن لها مقارنة غير البتولة مريم
وكان كهارون بن عمران عنده من المصطفى موسى النجيب المكلم

ثم يعرض إلى حادثة الغدير فيصورها في عدة أبيات ينهيها بعد قسم طويل بقوله:

(لقد ضل يوم الدوح من لم يسلم) ثم يعمد إلى تصوير وصية النبي له قبل موته في أبيات يخلص منها إلى خطاب هذا الخصم اللدود ليردعه عن ملامه:

فمه لا تلمني في عليّ فإنه جرى حبه ما بين جلدي وأعظمي
ولو لم تكن أعمى به وبفضله عذرت ولكن أنت عن فضله عمي

ثم يحاول أن يبصره بذكر مواقفه في الحروب. والحق أن هذه القصيدة من أجمل الشعر وأعلاه وهي طويلة وقد اقتطفنا قسماً من أبياتها الجميلة ولم نذكرها كلها رعاية للاختصار.

وتصل هذه القصيدة إلى ابن أباض فلا يملك في جوابها غير الوقيعة به فقد أرسل على الفقهاء والقراء من صحابته وكانوا يتظاهرون خوفاً من السلطان بالتسنن ويكتمون الأباضية ثم شكل منهم شبه مظاهرة وسار بها إلى المنصور وكان إذ ذاك بدجلة البصرة فاستعدوه عليه، ولمكانة السيد في نفسه

طلب إليهم أن لا يقولوا كلمة قبل إحضاره ثم يرسل عليه فيحضر وتبدأ المرافعة

قال الخليفة: ما تقولون أنتم وما هي دعواكم

قال الجماعة: إن هذا الرجل يا أمير المؤمنين يشتم السلف ويقول بالرجعة ولا يرى لك ولا لأهلك إمامة.

قال الخليفة: (وقد أدرك بفطنته ما يريدونه بإقحامهم للجملة الأخيرة من إثارة عاطفته عليه) دعوني أنا واقصدوا لما في أنفسكم: ثم التفت إلى السيد وقال ما تقول أنت فيما يقولون؟

قال السيد: ما أشتم أحداً وإني لأترحم على أصحاب رسول الله ثم تحضر لباقته وسرعة بديهته فيقلب الدعوى عليهم لما يتذكر من خارجيتهم وإظهارهم التسنن على سبيل التقية، فيقول: وهذا ابن أباض قل له يترحم على علي وعثمان وطلحة والزبير.

قال الخليفة (وقد رأى في طلبه وجاهة): ترحّم يا ابن أباض على هؤلاء ويفاجئ ابن أباض هذا الطلب فيتلوى ساعة لهذه المفاجأة ويدرك المنصور من ذلك خارجيته فيحذفه بعصاه ثم يأمر به فيحبس ويلتفت إلى السيد فيهبه خمسة آلاف درهم وهكذا يخرج من هذه الدعوى وهو مثقل الجيب بالأموال ومفعم القلب بنشوة الانتصار ويخرج ابن أباض إلى السجن ويبقى فيه حتى يموت كما تقول الرواية. ومواقفه الكثيرة في أيام المنصور مع:

سوار القاضي

لا تقل روعة عن هذا الموقف ودلالتها على مكانته. وحرص المنصور على الاهتمام بها ربما تكون أهم من دلالة تلك كما أنها وافرة الدلالة على عدة من عناصر شخصيته كالاجتهاد وقوة الجدل والواقعية والجرأة

والشاعرية ونظائرها. وما في وقائعها من المتعة نقدم قسماً منها إلى القارئ الكريم.

وسوار هذا هو ابن عبد الله العنبري التميمي قاضي المنصور على البصرة والمنصوب من قبله ليؤم بالناس في مسجدها وهو جد القاضي الشهير سوار بن عبد الله بن سوار المتوفى سنة ٢٤٥ كان سنياً مخلصاً لعقيدته وكان لا يقل إخلاصاً لمذهبه من السيد فكانا لذلك على طرفي نقيض فكان أحدهما يحمل للآخر موجدة في نفسه قبل أن يجتمع به لما يبلغه عن نشاط صاحبه في بث فكرته وتأثيره في مجال العقيدة.

فليس من المستغرب بعد هذا أن نسمع أن السيد يدعى للشهادة عنده فيتفادى الحضور بمال ويأبى عليه كما تقول بعض الروايات ثم يحضر فيعرف القاضي أن الحاضر هو السيد الحميري فيقول: «استغفر الله من ذنب تجرأت به على الشهادة عندي قم لا أرضى بك» فيقوم مغضباً من مجلسه ثم يكتب إليه رقعة يقول فيها:

إن سوار بن عبد الله من شر القضاة

وهنا تبدأ المشادّة بينهما على نحو مكشوف فيستغل سوار وجود المنصور بالجسر فيثب للوقيعة به عنده ويفهم السيد ذلك فيسارع إليه قبل أن يدخل سوار وهو ينشد:

قل للإمام الذي ينجي بطاعته	يوم القيامة من بحبوحة النار
لا تستعينن جزاك الله صالحة	يا خير من دب في حكم بسوار
لا تستعن بخبيث الرأي ذي صلف	جم العيوب عظيم الكبر جبار
تضحى الخصوم لديه من تجبره	لا يرفعون إليه لحظ أبصار
تيهاً وكبراً ولولا ما رفعت له	من ضبعه كان عين الجائع العاري

ويتم إنشاده فيستفسر عن القصة ويرويها له فيدخل سوار ويبتسم

المنصور في وجهه وهو يقول: أما بلغك خبر إياس ابن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد في الشهود فما أحوجك بالتعرض للسيد ولسانه، ثم أمر السيد بمصالحته كما تقول الرواية.

وكادت تنتهي الأزمة عند هذا الحد لولا أن سواراً ظلّ يتابع صاحبه ويترصد الفرص للوقيعة به.

يدخل على المنصور وهو قاعد على دجلة بالبصرة والسيد ينشده قصيدته التي يقول فيها:

إن الإلــه الــذي لا شــيء يشبهــه	أعطـاكـم الملـك للـدنيـا وللـديـن
أعطــاكــم الله ملكــاً لا زوال لــه	حتـى يقـاد إليكـم صـاحـب الصيـن
وصــاحــب الهنــد مــأخــوذ بــرمتــه	وصـاحـب التـرك مـأخـوذ علـى هـون

والمنصـور فـي نشـوة ممـا يسمـع فـلا يهـون علـى سـوار ذلـك وتطغـى عاطفته على وجهه فيربد غيضاً ويسود حنقاً، وعلى يديه فيدلك أحداهما بالأخرى ـ كما تقول الرواية ـ ويلحظ المنصور ذلك فيه فيستفزه ويستنكره ويستفهمه باهتمام ظاهر: ما لك أرابك شيء؟

قال سوار: نعم. هذا الرجل يعطيك بلسانه ما ليس في قلبه والله يا أمير المؤمنين ما صدقك ما في نفسه وإن الذي يواليهم لغيركم.

قال المنصور (وقد أدرك سر العاطفة فيه): مهلاً مهلاً هذا شاعرنا ولينا وما عرفت منه إلا صدق محبة وإخلاص نيّة.

قال السيد (وقد وجد الثغرة للصولة على خصمه والتشفي منه): يا أمير المؤمنين والله ما تحملت بغضكم لأحد، وما وجدت أبوي عليه فافتتنت بهما (يعرض بسوار كما سيتضح) وما زلت مشهوراً بموالاتكم في أيام عدوكم.

قال المنصور: صدقت.

قال السيد (وقد تشجع بتصديق الخليفة): ولكن هذا وأهلوه أعداء الله ورسوله قديماً والذين نادوا رسول الله من وراء الحجرات فنزلت فيهم آية من القرآن ثم أنشد (ولعله قالها ارتجالاً وقد اكمل بها بيته السابق):

يـا أميـن الله يـا منصـور يـا خيـر الـولاة
إن سـوار بـن عبـد الله مـن شـر القضـاة
نعثلـي جملـي لكـم غيـر مـوات
جـدّه سـارق عنـز فجـرة مـن فجـرات
لـرسـول الله والقـاذفـه بـالمنكـرات
وابـن مَـن كـان ينـادي مـن وراء الحجـرات
يـا هنـاة أُخـرج إلينـا إننـا أهـل هنـات

وما دام غائباً ـ والسلطة الفعلية لم تأت بما يستوجب الثورة ـ فلا مسوّغ لها لديه بالاضافة إلى ما أنعم عليه المنصور من إطلاقه للسانه وإعطائه الحرية في شؤونه التبشيرية وإذا صح ذلك الطلب فصاحبنا ـ فيما لدينا ـ لم يستجب، له فلم يقتصد في مديحه للطالبيين بل لم تختلف خطته عما سبق وربما استظهر عدم جده فيه فتسامح عنه فهذه بعض حوادثه السابقة مع سوار والواقعة بعد ذلك التأريخ تدل على ذلك وهذه علاقته مع:

ولي العهد

لا تشعر أيضاً بشيء منه فقد حدثوا ـ كما في الأغاني ـ أن المهدي جلس يوماً لتوزيع الأموال على قريش ـ وهو ولي عهد وولايته بعد ذلك التأريخ ـ فبدأ ببني هاشم ثم بسائر قريش فجاء السيد فرفع إليه رقعة جاء فيها:

قـل لابـن عبـاس سمـي محمـد لا تعطيـن بنـي عـدى درهمـا
إحـرم بنـي تيـم بـن مـرة إنهـم شـر البـريـة آخـراً ومقـدمـا
إن تعطهـم لايشكـروا لـك نعمـة ويكـافئـوك بـأن تـذم وتشتمـا
وإن ائتمنتهـم أو استعملتهـم خـانـوك واتخـذوا خـراجـك مغنمـا
ولئـن منعتهـم لقـد بـدؤكـم بـالمنـع إذ ملكـوا وكـانـوا أظلمـا
منعـوا تـراث محمـد أعمـامـه وبنيـه وابنتـه عـديلـة مـريمـا
وتـأمّـروا مـن غيـر أن يستخلفـوا وكفـى بمـا فعلـوا هنـالـك مـأثمـا
لا يشكـروا (كـذا) لمحمـد أنعـامـه أفيشكـرون لغيـره إن أنعمـا
والله مـنّ عليهـم بمحمـد وهـداهـم وكسـا الجنـوب وأطعمـا
ثـم انبـروا لـوصيـه ووليـه بـالمنكـرات فجـرعـوه العلقمـا

وهي قصيدة طويلة حذف باقيها صاحب الأغاني لقبح ما فيه كما يقول، ومع هذا التعرض لذكر الإمام (الوصي) والتعريض بالسابقين، كان لهذه القصيدة مفعولها في نفس ولي العهد فقد قطع الصلات عنهم وقال له مبتسماً عندما دخل عليه: قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل وأحاديثه مع:

عقبة بن سلم

وهو والي المنصور على البصرة بعد ذلك التأريخ بمدة لا تشعر أيضاً بذلك. حدّث عبد الله بن أبي بكر قال: إن أبا الخلال العتكي دخل على عقبة إبن سلم والسيد عنده وقد أمر له بجائزة ـ وكان أبو الخلال شيخ العشيرة وكبيرها ـ فقال له: أيها الأمير أتعطي هذه العطايا رجلاً ما يفتر عن سبّ أبي بكر وعمر؟ فقال له عقبة: ما علمت ذاك ولا أعطيته إلا على العشرة والمودة القديمة وما يوجبه حقه وجواره مع ما هو عليه من موالاة قوم يلزمنا حقهم ورعايتهم. فقال له أبو الخلال: فمره إن كان صادقاً أن يمدح أبا بكر وعمر

حتى نعرف براءته مما ينسب إليه من الرفض فقال قد سمعك فإن شاء فعل فقال السيد:

إذا أنـا لـم أحفـظ وصـاة محمـد ... ولا عهـده يـوم الغـديـر المـؤكـدا
فـإني كمـن يشـري الضـلالـة بـالهـدى ... تنصـر مـن بعـد التقـى وتهـودا
ومـالـي وتيـم أو عـدي وإنمـا ... أولـو نعمتـي فـي الله مـن آل أحمـدا
تتـم صـلاتـي بـالصـلاة عليهـم ... وليسـت صـلاتـي بعـد أن أتشهـدا
بكـاملـة إن لـم أصـلّ عليهـم ... وأدع لهـم ربّـاً كـريمـاً ممجـدا
بـذلـت لهـم ودي ونصحـي ونصـرتـي ... مدى الدهر ما سميت يا صاح سيدا
وإن امـرأً يلحـي علـى صـدق ودهـم ... أحـق وأولـى منهـم أن يفنـدا
فـإن شئـت فـاختـر عـاجـل الغـم ضلـة ... وإلا فـامسـك كـي تصـان وتحمـدا

يقول محدث الحديث: ثم قام مغضباً فقام أبو الخلال إلى عقبة فقال أعذني من شره أعاذك الله من السوء أيها الأمير. قال: قد فعلت على أن لا تعرض له بعدها.

ودلالة هذه الحادثة على عدم استجابته للطلب السابق غير خفية مع عدم اتقائه في وقت كان يقتضي التقية لحضور هذا العتكي الجبار الذي تحداه كما رأيتم أمام الأمير.

وإذا صح أن يتجاهر أمام الأمير عقبة لعلاقاته السابقة معه من الجورة والاتحاد بالولاء لأهل البيت وللمودة بينهما سابقاً التي صححت له أن يهبه داراً في بداية حباته ويقوم بشؤونه إلى ما بعد وفاة أبويه وربما دلت الدلائل ـ كما قلنا فيما سبق ـ على أنه كان هو اليد الآسية التي أنقذته من خارجيته إذا صح ذلك فلا يصح أن يتجاهر أمام شيخ العشيرة لجواز وشايته عليه عند الخليفة لو لم يكن مأمون الجانب منه.

وأكثر من ذلك ما كان له مع ابن سليمان بن علي الذي هدده السيد

بالوشاية عليه عند أمير المؤمنين. قال علي بن المغيرة: «كنت مع السيد على باب عقبة بن سلم ومعنا ابن لسليمان بن علي ننتظره وقد أسرج له ليركب إذ قال ابن سليمان ـ وهو يريد التعريض بالسيد ـ: أشعر الناس والله الذي يقول:

محمد خير من يمشي على قدم　　وصاحباه وعثمان بن عفانا

فوثب السيد وقال أشعر والله منه الذي يقول:

سائل قريشاً إذا ما كنت ذا عمه　　من كان اثبتها في الدين أوتادا
من كان أعلمها علماً وأحلمها　　حلماً وأصدقها قولاً وميعادا
إن يصدقوك فلن يعدوا أبا حسن　　إن أنت لم تلق للأبرار حسادا

ثم أقبل على الهاشمي فقال: يا فتى نعم الخلف أنت لشرف سلفك أراك تهدم شرفك وتثلب من سلفك وتسعى بالعداوة على أهلك وتفضل من ليس أصلك على أصله على من فضلك من فضله وسأخبر أمير المؤمنين عنك حتى يضعك.

يقول ابن المغيرة: ولم يطق الفتى صبراً على ما سمع واعتراه الخجل فقام ولم ينتظر الأمير عقبة ولكنه أخبر بذلك فاستحسن حديث السيد وأخرج إليه جائزته

وعلى هذه الوتيرة تجري أحاديثه مع:

أبي بجير

والي الأهواز من قبل المنصور. ومن الحق أن نعطي لهذه الأحاديث أهمية في بحوثنا هذه لما كان لها من الاثر في مجرى حياته الخاصة.

وأبو بجير هذا هو عبد الله بن السماك النجاشي الأسدي الكوفي. وإذا قلنا الكوفي فقد كدنا أن نكشف عن عقيدته، فالكوفة إذ ذاك كانت سمتها

العامة سمة التشيع لأهل البيت وهكذا كان فقد اعتنق من مذاهبه في بداية امره مذهب الزيدية ثم عدل إلى القول بمذهب الإمامية بعد اجتماع له بالإمام الصادق عليه السلام إمام ذلك العصر.

تولى الأهواز من قبل المنصور فلم تضعف الولاية عزمه ولا قللت من تظاهره بالعقيدة. وقد كتب إلى إمامه الصادق يستفتيه في بقائه على الولاية.

وكان المعروف من مذهب الإمام أنه لا يقر ولاية الظالمين بل لا يجوز إعانتهم ولو بالقليل وما كان يسوغها إلا لافراد كان يأنس منهم الايمان الواقعي مع القدرة على دفع مظالم العباد واستغلال منصبهم للترفيه عن الشعب وإيثاره على مصالحهم الشخصية مع ملاحظة العدل في كل ذلك، وما عدا هؤلاء فلم يكن ليسوغ لهم الإمام الإقامة ساعة واحدة في منصب ليسوا هم له بأهل.

وقد كتب له في جواب استفتائه كتاباً يعد من أعظم الكتب وضع فيه الأُسس القويمة للسياسة الصالحة، فليرجع إليه في مظانه من كتب الاخبار مَن يهمه الوقوف على مثل هذه الكنوز من ساستنا الكرام.

نقول هذا لنمهد لشرح أسرار علاقته بصاحبنا الحميري فقد كان ـ بحكم اخلاصه لمبدئه ـ لا يألف إلا من يناغم عواطفه فيه. وكان السيد إذ ذاك علماً من الاعلام في هذا الشأن وشعره في أهل البيت هو النغمة المفضلة لاكثر الشيعة إذ ذاك. فكان يقول القصيدة من قصائده فيسرع إلى تلقفها رواته الأدنون ثم تذاع من طريقهم في سائر الأمصار.

وقد كان لأبي بجير مولى له يدعى يزيد بن مذعور وكان ذكياً جداً وقد أدرك بذكائه ما يتركه مثل شعر السيد في نفس مولاه، فاحب أن يكون الأثير عنده فاتخذ من جمعه وتتبعه لشعر السيد وإنشاده إلى سيده طريقه إلى ذلك، وقد نجح فيه نجاحاً يغبط عليه لدى مواليه فكان ينشده القصيدة تلو القصيدة

بين حين وحين فيستزيده منها وكان له من شعر السيد مادة لا تنفد لكثرتها وتنوع مواضيعها واستقصائها لجملة الفضائل المعروفة للإمام علي وأولاده عليهم السلام . وربما اتخذ منها أبو بجير أجوبة على من يختلف معه في العقيدة.

حدّث النوفلي عن أبيه أن جماعة من أهل الثغور قدمو على أبي بجير فعاتبوه على التشيع وسألوه الرجوع، فغضب من ذلك ودعا مولاه يزيد بن مذعور فقال انشدني ويلك لابي هاشم فانشده قوله:

يا صاحبي لدمنتين عفاهما ... مر الرياح عليهما فمحاهما

حتى فرغ. ثم قال هات النونية فانشد:

يا صاحبي تروحا وذراني ... ليس الخلي كمسعر الأحزان

فلما فرغ، قال: انشدني الدماغة الرائية فانشده إياها، فلما فرغ اقبل الثغريون ـ ويظهر أنهم لم يكونوا على نصيب من الذكاء ليعتبروا بهذا الانشاد ـ فقالوا له: ما اعتبتنا فيما عتبناك عليه فقال: يا حمير هل في الجواب أكثر مما سمعتم والله لولا أنني لا أعلم كيف يقع فعلي من أمير المؤمنين لضربت اعناقكم قوموا إلى غير حفظ الله، فقاموا.

وتشيع هذه الحادثة بالاهواز ـ وهي غير بعيدة من البصرة وهواة نقل الأخبار كثيرون ـ فتبلغ مسامع السيد ويطربه مقام شعره في نفس هذا الوالي فيسرع إلى نظم أبيات يصور بها الواقعة، جاء فيها:

إذا قال الأمير أبو بجير ... اخو اسد لمنشده يزيدا
طربت إلى الكرام فهات فيهم ... مديحاً من مديحك أو نشيدا
رأيت لمن بحضرته وجوهاً ... من الشكاك والمرجين سودا
كأن يزيد ينشد ـ بامتداح ... أبا حسن ـ نصارى أو يهودا

ثم يهزه الشوق إلى رؤية هذا الأمير الذي احتل من قلبه أرفع مقام، وربما كان الأمير نفسه في أحر الشوق إلى رؤيته فيسرع السفر إلى الأهواز. قال راويته إسماعيل ـ وكان معه من حديث طويل ـ: فلما قدمنا الأهواز سكر السيد فقبض عليه وجيء به إلى أبي بجير وهو لا يعرفه بشخصه ولم يكن قد رآه من قبل فاستفزه سكره وهو شيخ قال: يا شيخ السوء تخرج سكراناً في ذا الوقت لأحسنن أدبك.

قال السيد ـ وقد طار السكر من رأسه فأراد أن يتدارك الموقف بذكائه ـ: لا والله لا فعلت ولتكرمني ولتخلعن علي وتحملني وتجيزني.

قال أبو بجير ـ وقد ظن أن السكر ما يزال يعبث بعقله ـ: أوتهزأ أيضاً؟ قال السيد: لا والله ثم اندفع ينشده أبياتاً أدرك منها أن المتحدث هو أبو هاشم.

قال متعجباً: أبو هاشم؟!

قال: نعم.

قال ـ وقد هزته هذه المفاجأة غير المنتظرة: والله لاصدقن قولك في جميع ما حلفت عليه.

وكانت هذه الحادثة بداية اخوة بينهما أوجبت أن يكثر السيد التردد على الأهواز.

وكان من ذلك أن قدمها مرة ـ ومعه جماعة ـ لزيارته وقد أحب أن يلتمس لهم شيئاً من التحرر قبل أن يبلغ صاحبه، فاستضاف قوماً من اخوانه وذهب إليهم قبل أن يذهب إليه وكانت منهم هفوات عثر عليها العسس فأخذهم وهم سكارى إلى السجن، ولم يكن يعرف السيد منهم فحبسهم هناك وباتوا ليلتهم فضاق السيد ذرعاً فيه وكتب أبياتاً إلى يزيد بن مذعور ليقرأها على صاحبه وسارع بها يزيد إلى الأمير.

قال ـ وقد أحب أن يمهد للحديث بشيء من التهويل ـ : يا أمير قد جنى عليك صاحب عسسك ما لا قوام لك به

قال : وما ذلك يا يزيد؟

قال يزيد : اسمع هذه الأبيات. وشرع يقرؤها بنبرة مؤثرة :

قف بالديار وحيها يا مربع	واسأل وكيف يجيب من لا يسمع

وفيها يقول :

فاسلم فانك قد نزلت بمنزل	عند الأمير تضر فيه وتنفع
تؤتى هواك إذا نطقت بحاجة	فيه وتشفع عنده فيشفع
قل للأمير إذا ظفرت بخلوة	منه ولم يك عنده من يسمع
هب لي الذي احببته في أحمد	وبنيه إنك حاصد ما تزرع
يختص آل محمد بمحبة	في الصدر قد طويت عليها الاضلع

ويستغرب الأمير أن يكون صديقه أبو هاشم في السجن فيرسل على صاحب عسسه، ويأتيه فيشتمه ثم يقول له : جنيت ما لا يدَ لي به اذهب صاغراً إلى الحبس وقل أيكم أبو هاشم، فإذا أجابك فأخرجه واحمله على دابتك وامش معه صاغراً حتى تأتيني به.

ويقبل صاحب العسس باهتمام وينادي أبا هاشم كما امره ويحاول أن يخرجه فيأبى عليه إلا أن يطلق له كل من اخذهم معه، ويتحرج موقف الرجل الذي لم يؤمر باخراج غيره ويعود إلى أميره. فيقول له وهو مبتسم : الحمد لله الذي لم يقل اخرجهم واعط كل واحد منهم مالاً فما كنا نقدر على خلافه. ثم يتجهم قليلاً ويقول له : افعل ما أحب على رغم أنفك.

تقول الرواية فمضى واطلقهم جميعاً وجاء بابي هاشم إلى الأمير فاستقبله بشيء من التنكر غير المألوف له ثم تناوله بلسانه وقال فيما قال :

قدمت علينا فلم تأتنا وأتيت بعض اصحابك الفساق وشربت ما حرم عليك حتى جرى ما جرى وهو عتب في موضعه من مثل هذا الأمير الحازم الذي لم يملك له السيد غير الاعتذار وبعد أن يتطامن يأمر له بجائزة سنية ويأمره بالمقام عنده مدة من الزمان يعود بعدها إلى البصرة وهو موقر الأحمال بالاموال.

وتشيع هذه الصداقة المؤكدة في كل مكان فتكبت من نفوس حساده والحاقدين عليه مكانته ويظل هؤلاء يترصدون الفرص للتنفيس عن نفوسهم.

وتشاء الصدف أن تدور إشاعة على الالسنة أن أبا بجير قد أشرف على الموت لمرض ألمّ به ويبلغ السيد الخبر فيسوؤه ويشمت لذلك اعداؤه وحساده فلا يتمالك دون أن يخرج إلى الأهواز للتأكد من صحة أخيه كما كان يحلو له أن يسميه وهو يردد:

تباشر أهل تدمر إذ أتاهم ... بأمر أميرنا لهم بشير
ولا لأميرنا ذنب اليهم ... صغير في الحياة ولا كبير
سوى حب النبي واقربيه ... ومولاهم بحبهم جدير
وقالوا لي لكيما يحزنوني ... ولكن قولهم افك وزور
فقد أمسى اخوك أبو بجير ... بمنزلة يزار ولا يزور
وظلت شيعة الهادي علي ... كأن الأرض تحتهم تمور
فبت كأنني مما رموني ... به في قرذي حلق أسير
كان مدامعي وجفون عيني ... تؤخر بالفقار فهن عور
أقول علي للرحمن نذر ... صحيح حيث تحتبس النذور
بمكة إن لقيت أبا بجير ... صحيحاً واللواء له يسير

ثم ماذا؟ هنا يسكت صاحب الأغاني فلا يعرفنا ببقية أبياته ولا يعرفنا عما جرى لابي بجير بعد هذا المرض الخطير والذي يغلب على ظني أنه

وجده معافى فوفى بالنذر الذي لم تحدثنا الأبيات عن ماهيته.

والحق أن هذه الأبيات وقدة من عاطفة ملتهبة تنم عما وراءها من لوعة مشبوبة في حنايا الفؤاد، وفيها خير دلالة على الاثر الذي تركه في نفسه هذا الأخ الكريم رغم الخلاف المذهبي بينهما زمناً غير يسير.

فقد كان أحدهما كما قدمنا زيدياً ثم إمامياً وكان الاخر كيسانياً وربما كانا يتناظران في مذهبهما. وقد يتجاوز أبو بجير حدود المناظرة إلى المعاتبة فيه كما يتحدث هو فلا يتوفق إلى حمله على العدول عنه لعدم تمكنه كما يظهر من إقناعه بالبراهين المنطقية السليمة لديه، وهو هو الرجل الواقعي الذي لا ينخدع لمجرد الأقوال حتى إذا اكتنفت باموال ونفوذ السلطان.

وبالآخرة وعندما اعتنق السيد مذهب الإمامية سارع إلى صاحبه فكتب إليه يعلمه بذلك ثم أقبل إلى الأهواز على عادته فقال له أبو بجير ـ وكأنه أراد أن يزيده اطمئناناً على اطمئنان ـ: لو كان مذهبك الإمامية لقلت فيها شعراً قال السيد فانشدته هذه القصيدة (ومنها):

أيا راكباً نحو المدينة جسرة	عذافرة يطوي بها كل سبسب
إذا ما هداك الله عاينت جعفرا	فقل يا أمين الله وابن المهذب
إليك رددت الأمر غير مخالف	وفئت إلى الرحمن من كل مذهب
سوى ما تراه يا ابن بنت محمد	فإن به عقدي وزلفى تقربي

ولما سمع هذه القصيدة سجد وقال: الحمد لله الذي لم يذهب حبي لك باطلاً. وقد حدث السيد بذلك كله زميله حماداً الحادي وقد اقبل عليه للتهنئة عندما قدم من الأهواز، قال حماد بعد أن نقل هذا الحديث: قال لي ثم أمر لي بما ترى (من المال والكراع والرقيق).

- ٨ -

أما أسباب اعتناقه لهذا المذهب فالروايات فيها متكثرة مختلفة وان كاد أن يكون بينها قدر جامع - كما يصطلح الاصوليون - فبعضها تجعل مسرحها الكوفة وتنقل لذلك قصة تصور فيها مرضه الذي قارب أن يقضي عليه لولا مرور الإمام الصادق بها واخبار محمد بن النعمان له بذلك وطلبه أن يعوده فيعوده ويبرأ بدعائه على يديه فيقول كلمة الحق - كما تعبر الرواية - وبعضها الآخر يجعل مسرحها مكة وينقل اجتماعه بالإمام الصادق إليها فتدور بينهما مناظرة تنتهي باعتناقه لهذا المذهب .

قال ابن المعتز في طبقاته - ص ٧ - وحدثني محمد بن عبد الله قال: قال لي السدري راوية السيد: كان السيد أول زمانه كيسانياً يقول برجعة محمد بن الحنفية وانشدني في ذلك :

حتى متى والى متى ومتى المدى يا ابن الوصي وأنت حي ترزق

والقصيدة مشهورة وحدثني محمد بن عبد الله قال قال السدري ما زال السيد يقول بذلك حتى لقي الصادق بمكة أيام الحج فناظره والزمه الحجة فرجع عن ذلك فذلك قوله في تركه تلك المقالة ورجوعه عما كان عليه ويذكر الصادق عليه السلام :

تجعفرت باسم الله والله أكبر وايقنت أن الله يعفو ويغفر
ويثبت مهما شاء ربي بامره ويمحو ويقضي في الأمور ويقدر

وهناك روايات تطلق فلا تعين المسرح وكثير منها لا يتنافى مع رواية ابن المعتز في مدلولها وان كان في بعضها أن المناظر هو مؤمن الطاق وربما يظهر أنه ناظره بامر من الصادق عليه السلام .

وفي كتب المعاجز روايات قد تختلف عن هذه في الأسباب وفي المكان وإن كانت تتفق معها في رجوعه على يد الإمام، والقدر الجامع فيما بينها جميعاً أن عدوله عن مذهبه كان بحضورإمامه ومن تأثيره أو تأثير مؤمن الطاق.

ومع هذا الاختلاف فيها فإلى أيها يميل مؤلف الكتاب، يقول ربما أميل إلى رواية ابن المعتز والطائفة التي تؤيدها من الروايات لاعتبارات كثيرة وإذا استعرنا من الاصوليين اصطلاحاتهم في كتاب التعادل والتراجيح قلنا لكثير من المرجحات التي يعود جلها إلى ملابسات الاحوال فهي أقرب إلى منطق الحوادث الطبيعية كما أنها أقرب إلى شخصية السيد العلمية.

فأسباب عدوله التي تعزوها بعضها إلى خوارق العادة قد يكون هو في غنى عنها لما نعرف من طبيعته التي لا تماري في الأخذ بما تقوم عليه الحجة فهو ـ كما رأينا ـ طالب حقيقة وطالب الحقيقة لا يحتاج في إقناعه إلى المعجزات على أن المعجزات إنما يأتي بها القادرون عليها في العادة إذا اعوزهم البرهان المقنع.

وهذا إنما يكون إذا كان المجادل لا يقبل الاحتجاج إما لهبوط في مستواه العلمي أو لتعصبه الأعمى وهو ما لم نجده في صاحبنا الذي عرفنا منه العمق في مبادئه والتحرر ـ في مجال المناظرة وطلب الحقيقة ـ من كل ما يفكر ذلك من ارتكازات، هذا بالإضافة إلى الترجيحات السندية في جانب الطائفة المؤيدة لرواية الطبقات.

ومهما يكن وسواء أخذنا بهذه أو تلك وآمنا بخوارق العادات أو لم نؤمن، فحديث تشيعه الأخير مما لا يتطرق إليه الريب لتواتر رواياته وأمانة الناقلين في كثير منها، وعدم استطاعتنا اخضاع بعضهم للنوازع العاطفية التي

تقضي أن يختلقوها من أساسها. على أن هناك ملابسات مختلفة موزعة في كثير من مواضع سيرته مع أناس مختلفين وهي لا تصل إليها ـ بحسب العادة ـ اخيلة الواضعين إلا أن يكونوا من الحذق بمكانة ترتفع بهم عن مستويات عصورهم، وذلك كوشاية سوار السابقة عليه في اعتناقه لمذهبه واعترافه بذلك وكحديثه مع أبي بجير في رواية حماد واشباهها مما يغفل عنها واضعو الأحاديث عادة ويأتي التعرض لبعضها إن شاء الله.

هذا وليس من الحق أن نتحكم في آرائنا على منكري ذلك فلننظرهم ماذا يقولون.

إن الكتب التي أنكرت عدوله عن مذهبه كثيرة وقد غلبت على بعضها النغمة العاطفية فشوهت أقوالها وجلها ترسل الانكار من دون حجة والذي يظهر أن مصدرها جميعاً ما حدث به صاحب الأغاني وهو اقدمهم في دعوى ذلك واقربهم إلى المنطق في دعواه فلنصرف الكلام إليه لننظر ما يقول.

هناك في كتابه لإثبات دعواه طريقان، أحدهما يعتمد على الرواية والاخر على الاجتهاد. أما الأول منهما فيملك له روايتين تقريباً إحداهما مسلسلة يرفعها إلى سليمان بن سفيان راويته قال فيها: ما مضى والله إلا على مذهب الكيسانية وهذه القصائد التي يقولها الناس مثل:

تجعفرت باسم الله والله أكبر تجعفرت باسم الله فيمن تجعفروا

وقوله:

أيا راكباً نحو المدينة جسرة عذافرة تهوي بها كل سبسب
إذا ما هداك الله عاينت جعفراً فقل يا أمين الله وابن المهذب

لغلام للسيد يقال له قاسم الخياط قالها ونحلها للسيد وجازت على كثير من الناس ممن لم يعرف خبرها بمحل قاسم منه وخدمته إياه.

وهي رواية متينة لها قيمتها الفنية لتشخيصها للواضع لهذه الأبيات ـ وهذه ـ لو صحت عن راويته ـ وأردنا أن نأخذ بها كان علينا أن نلتمس الروايات الى السيد فكل رواية يقع في طريقها قاسم الخياط نطرحها لاتهامه بالوضع.

وبمقتضى ما يقوله لا بد وأن يكون قاسم هذا واقعاً في جميع طرقها لأنه المصدر الوحيد لها فيما يقول هذا الراوية. فلتعد إذن إلى رواياتنا لنبحث عن قاسم الخياط فيها لعلنا نعثر له على أثر.

ولكن رواياتنا جميعاً وهي كثيرة لم نجد فيها لقاسم هذا أي ذكر فهي تمضي قدماً إلى رواته الخاصين كالسدري في رواية ابن المعتز السابقة وطريقه إليه راوٍ واحد هو محمد بن عبد الله، وخلف الحادي في رواية المرزباني العالم الثقة الذي سمع كما قدمنا من السيد نفسه حديث تشيعه، وحيان السراج راويته الكيساني في رواية الصدوق القائلة بعد ذكره لسلسلة الرواة قال حيان السراج قال: سمعت السيد بن محمد الحميري يقول: كنت أقول بالغلوّ وأعتقد غيبة محمد بن علي الملقب بابن الحنفية، قد ضللت في ذلك زماناً فمنّ الله عليَّ بالصادق جعفر بن محمد وانقذني به من النار ـ إلى أن يقول ـ وقلت قصيدتي التي أولها:

ولما رأيت الناس في الدين قد غووا تجعفرت باسم الله فيمن تجعفروا

وستأتي رواية عباد بن صهيب الذي شاهد كتاباً من السيد إلى الإمام الصادق وفيه هذه الأبيات:

أيا راكباً نحو المدينة جسرة عذافرة تهوى بها كل سبسب

وأمثال هذا كثير وأظن القارئ يستبعد معي أن يكون قاسم الخياط من اللباقة بحيث يستطيع أن يتفق مع هؤلاء جميعاً للكذب على السيد بدعوى

السماع منه ليصح له أن سيده مات شيعياً إمامياً.

والرواية الثانية عن مسعود بن بشر: أن جماعة تذاكروا أمر السيد وانه رجع عن مذهبه في ابن الحنفية وقال بإمامة جعفر بن محمد فقال ابن الساحر راويته: والله ما رجع عن ذلك ولا القصائد الجعفريات إلا منحولة له قيلت بعده واخر عهدي به قبل موته بثلاث، ثم يروى له قصيدة قالها إذ ذاك على مذهب الكيسانية الخ.

وهذه تختلف عن تلك في عدم تعيين الواضع وإن نسبتها إلى الوضع ولكن الذي نأسف له أنها لم تشخص الجماعة الذين سمعوا من ابن الساحر ولم تنص على أن بشراً كان معهم، وما دام الأمر كذلك فلا نستطيع أن نطمأن إليها فربما كان فيهم من يميل إلى الكذب في أمثال هذه المواضيع، على أن تكذيب ابن الساحر فيها ـ لو صحت عنه ـ أهون من تكذيب أولئك جميعاً في مجال المقارنات لما يكتنف رواياتهم من دلائل الصدق.

وهناك رواية ثالثة عن إسماعيل بن الساحر نفسه ولعلها عين الثانية وإن امتازت عنها بالارسال وببعض الزيادات وحالها حال سابقتها.

وأما الاجتهاد فهذه دعوى مدعية (ولا شعره أيضاً من هذا الجنس ولا في هذا المذهب لأن هذا شعر ضعيف يتبين التوليد فيه وشعره في قصائده الكيسانية مباين لهذا جزالة ومتانة ورونقاً ومعنىً ليس لما يذكر عنه في غيره).

ونحن نعجب كيف خفي هذا التوليد على ابن المعتز ـ وهو الذواقة ـ فلم يرسل فيه كلمة تشكيك مع قرب عهده به وحسن فهمه لخصائص الأساليب. على أن الذي يقرأ مجموعة أشعاره لا يجد فيها الفوارق التي تميز هذه الأبيات عن غيرها من شعره، وربما كانت هي أقرب إلى طابعه الشعري

من غيرها. وبوسع القارئ أن يقارن بينها وبين دالية يذكرها له راويته اسماعيل في شعره الكيساني ويجعلها آخر ما قاله من الشعر كما في الأغاني ليرى أيهما أكثر علاقة بطابع شعره الخاص.

وما لنا نطيل، القضية لا تستحق كل هذا الاهتمام لولا ما أولاها به المؤرخون من عناية كانت موضعاً لتلاعب كثير من الاهواء فلنتحول عنها إذن إلى دراسة بعض ملابساتها الخاصة.

وأهمها - فيما نرى - أن نشرح علائقه بأئمته الجدد وبخاصة الإمام الصادق عليه السلام فلذلك أثره التام على نفسه وان نتوسع في الشرح فنعرض إلى مبدأ علاقته به وأسبابها ثم نسايره فيها في ضوء ما ترك لنا التأريخ من احاديث.

ومبدأ هذه العلاقة على التحقيق مجهول لدينا أمره فليس فيما عندنا من اخباره ما يلقي بعض الأضواء على ذلك، وكل ما في الأمر أننا نعلم أن اتصاله الأول به لم يكن مرتجلاً ومن دون علائق ودية سابقة على تاريخه.

فالإمام الصادق لم يكن نكرة في تاريخ ذلك العصر، فهو العميد الروحي الكبير للبيت الهاشمي وإذا كان هناك بعض الشك في امامته لدى غير شيعته فليس هناك ادنى شك في علمه وورعه وصدقه ووثاقته لدى الجميع، وقد ضربت حوله هالات من الاكبار سرى مفعولها إلى اكثر البلاد الاسلامية وقد طفحت آثارها حتى على ألسنة خصومه السياسيين وغيرهم كالمنصور والسفاح مثلاً.

وصاحبنا الحميري هو الآخر كان ذا شهرة واسعة في ولاء أهل البيت والنضال عنهم، وكان يعتبر نفسه كما رأينا من قبل صاحب رسالة يبشر بها هنا وهناك وقد طبق شعره - أو كاد - البلاد الاسلامية وبخاصة التي يكثر فيها شيعة آل البيت وقد استحق لذلك عطفهم على اختلافهم في عقائدهم لما كان يتوخاه في أكثر شعره من نظم الحوادث الكبرى في تاريخ الإمام عليه السلام.

ومثل هاتين الشهرتين لا بد وأن تصل كل منهما إلى نفس الاخر فتحتل منها المكان اللائق بها وهكذا فقد كان ينقل الرواة إلى الإمام كثيراً من شعره

فيعجب به وربما تطلع إلى رؤيته والاجتماع به.

واسبق ما لدينا في ذلك ما حدّث به فضيل الرسان من أنه دخل على الإمام الصادق عليه السلام بعد مقتل عمه زيد ليعزيه به يقول: قلت يا سيدي ألا أنشدك شعر السيد، قال: امهل. ثم أمر بستور فسدلت وبأبواب ففتحت. ثم قال: أنشد. فأنشدته:

لأم عمـــر بـــاللـــوى مـــربـــع	طـــامســـة اعـــلامـــه بلقـــع
لمـــا وقفـــت العيـــس فـــي رسمـــه	والعيـــن مـــن عـــرفـــانـــه تـــدمـــع
ذكـــرت مـــن قـــد كنـــت اهـــوى بـــه	فبـــت والقلـــب شـــج مـــوجـــع

وهكذا حتى يخلص إلى حادثة الغدير وقد تقدم كثير من أبياتها.

وتأخذ هذه القصيدة مأخذها من نفس الإمام وعائلته فيرتفع النحيب من وراء الستر، ثم يقول له الإمام: لمن هذا الشعر؟ فيقول فضيل: انه للسيد بن محمد. فيترحم عليه الإمام ويستغرب فضيل ذلك لما يعهده فيه من شرب الخمر، فيرفع الإمام استغرابه بقوله ـ بعد حديث ـ: إن زلت له قدم فقد ثبتت له أخرى. وكأن فضيلاً الرسان كان من اولئك الذين يستعظمون صدور الذنب من العبد ويستبعدون على الله أن يتوب عليه، فرفع ذلك الإمام عنه وما يمنع أن يتوب الله على العبد وهو الذي اخذ على نفسه أن يتوب على عبيده ما لم يشركوا به، ثم ما يمنع أن تكون للعبد ذنوب وحسنات فتذهب حسناته سيآته أو توزن بها فترجح الحسنات ﴿**فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية**﴾.

ونحن لا نرى في كلام الإمام أكثر من تقرير هذه الحقيقة ورفع الجمود عن مثل فضيل الذي كاد أن يسري إليه اليأس من غفران الله لمجرد شرب شاعره الخمر وليس فيه بعد ذلك اطماع لمثل السيد كما يتوهم الدكتور طه

حسين في حديث الأربعاء، ولو صح توهمه لكانت هذه الآيات أكثر اطماعاً له وأي إطماع ـ على مذهب الدكتور ـ أشد من قوله تعالى ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا**﴾ . لا يا دكتور ما هكذا تفهم ملابسات الأحاديث، وقد رويت هذه القضية بطريق آخر عن فضيل نفسه وهي تصوّر زمانها بعد وفاة السيد.

والحقيقة التي نراها أنها لم تصدر بعد وفاة زيد لنقدمها كثيراً، فالسيد إذ ذاك كان عمره على أقل تقدير ١٦ عاماً لأن ولادته سنة ١٠٥ وقتل زيد سنة١٢١ . ويبعد أن تقام لشعره وسيرته الاوزان وهو ابن ستة عشر عاماً.

والرواية الاخيرة لا نطمئن لها لما نراه بعد حين من استمرار حياته إلى ما بعد وفاة الإمام الصادق بأكثر من عقد والذي نقر به أنه كانت بعد تشيعه الأخير وهو الذي يؤيده دعاء الإمام له، والإمام يبعد أن يدعو له وهو لا يقر أصل طريقته وقد يسميه كافراً كما في بعض الأحاديث. وإذا تم ما قربناه فهذه القصة ليست هي اقدم ما يدل على مبدأ العلاقة بينهما.

ففي بعض الأحاديث أنه اجتمع به وهو كيساني العقيدة أي قبل ذلك التاريخ، قال اسماعيل: كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد إذ استأذن آذنه للسيد فأمر بإيصاله واقعد حرمه خلف ستر. ودخل فسلم وجلس فاستنشده فانشده قوله:

امرر على جدث الحسين	وقل لأعظمه الزكية
أأعظماً لا زلت من وطفاء	ساكبة روية
وإذا مررتَ بقبره	فاطل به وقف المطية
وابك المطهر للمطهر	والمطهرة التقية

كبكاء معولة أتت يوماً لواحدها المنية

ويبلغ هذا المحل من قصيدته فيعلوا الصراخ من وراء الستر فيأمره الإمام بالامساك فيمسك.

يقول اسماعيل: فحدثت أبي بذلك لما انصرفت فقال لي: ويلي على الكيساني الفاعل ابن الفاعل يقول:

فإذا مررت بقبره فاطل به وقف المطية

قلت: يا ابت وماذا يصنع؟ قال: أولا ينحر أولا يقتل نفسه ثكلته أمه. وكأن هذا الناقد الكريم لا يرى في تصوير الحزن ابلغ من ان يهول صاحبه بالقتل أو الانتحار وفاته أن الطريقة التي سلكها السيد للتعبير عن عواطفه هي ابلغ طريقة كان يسلكها العرب الرحالة في تصوير لواعج القلوب.

فهذا الاجتماع كما ترون كان في أيام كيسانيته، والذي يظهر من تحضير الإمام لعياله خلف الستر قبل الاذن له أنه كان ممن سبقت شهرته إليه فتعرف على وجهات نظره في هذه الشؤون وهو ما سبق أن قلناه في بداية الحديث.

ويظهر أن الاجتماعات بعد ذلك قد تكررت بينهما وأنه حظي من نفس الامام بمكانة لم يحظ بها شاعر فهو يلقبه بسيد الشعراء والسيد يعتز بهذا اللقب فيسجله في شعره بقوله:

ولقد عجبت لقائل لي مرة — علامة فهم من الفقهاء
سماك قومك سيداً صدقوا به — أنت الموفق سيد الشعراء
ما أنت حين تخص آل محمد — بالمدح منك وشاعر بسواء
مدح الملوك ذوو الغنى لعطائهم — والمدح منك لهم بغير عطاء

والذي يبدو لي أن هذه الأبيات قالها فيه قبل أن يعترف بإمامته وإلا

لكان له في وصفه غير هذا الأسلوب، فصاحبه في هذه الأبيات لم يتعد أن يكون (علامة فهم من الفقهاء) والإمام في نظر الشيعة أكثر من علامة من الفقهاء كما تتضح وجهة نظره فيه بعد ذلك في مديحه له من قصيدة:

أمـــدح أبـــا عبـــد الإلـــه فتـــى البـريـــة فـــي احتمـــالـــه
سبـــط النبـــي محمـــد حبـــل تفـــرع مـــن حبـــالـــه
تغشـــى العيـــون النـــاظـــرات إذا سمـــون إلـــى جـــلالـــه
عـــذب المـــوارد بحـــره يـــروي الخـــلائـــق مـــن سجـــالـــه

وفيها يقول:

يـــا حجـــة الله الجليـــل وعينـــه وزعيـــم آلـــه
وابـــن الـــوصـــي المصطفـــى وشبيـــه أحمـــد فـــي كمـــالـــه
أنـــت ابـــن بنـــت محمـــد حـــذواً خلقـــت علـــى مثـــالـــه
فضيـــاء نـــورك نـــوره وظـــلال روحـــك مـــن ظـــلالـــه
فيـــك الخـــلاص عـــن الـــردى وبـــك الهـــدايـــة مـــن ضـــلالـــه
اثنـــي ولســـت ببـــالـــغ عشـــر الفـــريـــدة مـــن خصـــالـــه

فإمامه في هذه الأبيات هو (حجة الله على عباده) وهو (شبيه أحمد في كماله) وهو (مخلوق حذواً على مثاله) وفيه الهداية من الضلال ثم يعجزه استيعاب ما يقتضي أن يصفه به فيقول:

أثنـــي ولســـت ببـــالـــغ عشـــر لفـــريـــدة مـــن خصـــالـــه

وفي بائيته التي بعث بها إليه يقول:

أيـــا راكبـــاً نحـــو المـــدينـــة جســـرة عـــذافـــرة يطـــوي بهـــا كـــل سبســـب
إذا مـــا هـــداك الله عـــاينـــت جعفـــراً فقـــل يـــا أميـــن الله وابـــن المهـــذب
إليـــك رددت الأمـــر غيـــر مخـــالـــف وفئـــت إلـــى الـرحمـــن مـن كـل مـذهـب

سوى ما تراه يا ابن بنت محمد فإن بها عقدي وزلفى تقربي

إلى أن يقول:

واشهد ربي أن قولك حجة على الخلق طراً من مطيع ومذنب

وفي قافية قالها بعد اعتناقه لمذهبه الجعفري:

تركت ابن خولة لا عن قلى وانـي لكالكلف الوامق
واني له حافظ في المغيب اديـن بما دان في الصادق
هو الحبر حبر بني هاشم ونـور مـن الملك الرازق

وهكذا يجري سائر مديحه الجديد له. وآخر عهدنا به معه ما حدث صاحب الأغاني من ارساله اليه كتاباً يتوب فيه وقد حدث عباد بن صهيب ـ في رواية المرزباني ـ أنه شاهد بعينه ذلك الكتاب قال عباد بن صهيب: كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام فذكر السيد فدعا له فقيل له: يا ابن رسول الله اتدعو له وهو يشرب الخمر ويشتم ابا بكر وعمر ويوقن بالرجعة[1] فقال: حدثني أبي عن أبيه علي بن الحسين أن محبّي آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يموتون إلا تائبين وانه قد تاب ثم رفع رأسه وأخرج من مصلى عليه كتاباً من السيد يتوب فيه مما كان عليه، وفي آخر الكتاب (أيا راكباً نحو المدينة جسرة).

وهذه الرواية نرجو أن نحتفظ بمدلولها ونستظهره لموضعه مما يأتي من بحوث.

وعلائقه بالإمام الكاظم الذي تولى الإمامة بعد أبيه الصادق عليه السلام لم نجد لها في اشعاره ما يكشف عن مداها وكلما هنالك بيت أو بيتان ينسبها إليه بعض المؤرخين، فهو يقول فيها بعد تعداد أئمته من آبائه:

---

(١) يظهر أن السائل كان يختلف مع السيد في العقيدة.

ومــوســى ســابــع ولــه مقــام تقــاصــر عــن أدانيــه الكــرام

والذي نظنه أنه لم يصادف أن اجتمع به إلا نادراً فقد كان هذا الإمام إذ ذاك ضحية من ضحايا السلطات الطائشة في عصره التي تركته يتنقل في أكثر أيام إمامته من سجن إلى سجن وإن كان في أقوال بعض المؤرخين ما يشعر بالاجتماع به فقد عدّوه من صحابته والصحبة تلازم الاجتماع به عادة، وعلى أي تقدير.

ومهما يكن من أمر تلكم العلاقات مع أئمته الجدد فقد أحدثت في نفسه آثاراً لا نستطيع تجاهلها في حال وبخاصة فيما يتعلق بسلوكه الاجتماعي ونظرته الموضوعية إلى ما يرتبط بالسلطة القائمة الفعلية وهو ما عبرنا عنه فيما سبق بالفرع الثالث من فروع علاقاته مع الخلفاء وغيرهم ممن يهمه صحبتهم من معاصريه.

ـ ١٠ ـ

وأول ما نقربه في سلوكه الاجتماعي أنه اتجه في ميوله إلى مجامع الكوفة وندواتها بدلاً من البصرة، وأكثر من الترداد عليها لما كان يأنسه فيها من روح علوية إمامية تكاد تنتظم حلقاتها العلمية وغيرها، فقد كانت الكوفة إذ ذاك حاضرة شيعية في أكثر سكانها وكان فيها من رواة الأحاديث ومن العلماء من أصحاب الصادق أكثر من تسعمئة شيخ كما يحدث الوشا بذلك.

وإذا كان قد قصدها سابقاً لاخذ الحديث فحسب فهو من الآن فصاعداً يقصدها لأخذ الحديث وللتزود من صحبة أهلها الذين كان يرى في صحبتهم غذاءه العقلي والعاطفي، وكانوا يرون في صحبته ثروة لا تعادلها ثروة فهم يعملون جهدهم على الاحتفاظ بها وباعطائها ما تستحقه من إكبار.

وكان من مظاهر ذلك أن المؤرخين لاحظوا عليهم ما يخصونه به في المسجد من اعداد فراش خاص يجلس عليه وحده تمييزاً له عن سائر العلماء، ثم يجلس هو فيحدثهم ويحدثونه وكلما عثر على فضيلة للإمام علي عليه السلام سارع إلى نظمها وبثها بين الرواة واكثر ما كان يأخذ عن الأعمش المحدث الثقة بإجماع المؤرخين.

وكانت له طرق لالتماس أحاديث الفضائل يسلكها للحصول عليها وربما وطن نفسه في بعضها على بذل مال جزيل لذلك، قال المدائني ـ كما في الأغاني ـ: خرج السيد ذات يوم من عند بعض أمراء الكوفة وقد حمله على فرس وخلع عليه فوقف بالكناسة ثم قال: يا معشر الكوفيين من جاءني بفضيلة لعلي بن أبي طالب لم أقل فيها شعراً أعطيته فرسي هذا وما عليّ.

فجعلوا يحدثونه وينشدهم حتى أتاه رجل منهم وقال: إن

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رض) عزم على الركوب فلبس ثيابه وأراد لبس الخف فلبس أحد خفيه ثم أهوى إلى الآخر ليأخذه فانقض عقاب من السماء فحلق به ثم القاه فسقط منه اسود وانساب فدخل حجراً فلبس علي (رض) الخف، قال: ولم يكن قال في ذلك شيئاً، ففكر هنيهة ثم قال:

ألا يـا قـوم للعجـب العجـاب لخـف أبـي الحسيـن وللحبـاب
اتـى خفـاً لـه فـانسـاب فيـه لينهـش رجلـه منـه بنـاب
فخـر مـن السمـاء لـه عقـاب مـن العقبـان أو شبـه العقـاب
إلـى مجـرى لـه فـانسـاب فيـه بعيـد القعـر لـم يـرتـج ببـاب
كـريـه الـوجـه أسـود ذو بصيـص حـديـد النـاب أزرق ذو لعـاب
ودوفـع عـن أبـي حسـن علـي نقيـع سمـامـه بعـد انسيـاب

(وتتمة الرواية من كتاب المرزباني): ثم حرك فرسه وثناها واعطى المال والفرس للذي روى الخبر وقال إني لم أقل في هذه شيئاً.

وهذه الرواية ـ ان صحت ـ فهي مما يدل على عدة أمور بالاضافة إلى ما سقناها للدلالة عليه، أولاها: أن عقلية السيد كانت كعقلية أي مسلم لا تمنع الإعجاز إذا صح وروده في التاريخ، فهي من هذه الناحية لم تحاكم الرواية، وثانيها: كثرة مروياته التي نظمها في فضائل عليٍّ شعراً وهي ما تصحح الإيمان بالمبالغة في عدد قصائده كما يأتي، وثالثها: صدقه وأمانته، وإلا فقد كان بوسعه أن يدعي العلم بها وينظم مرتجلاً فيها أبياتاً كما ارتجل هذه الأبيات، والرابعة: اعتماده على الراوي فلم يشكك في روايته لينجو بما له منه، والخامسة: علاقته بوالي الكوفة الذي كان قد زوده بذلك المال.

وهناك رواية أخرى ربما تؤكد هذه العلاقة بينه وبين الوالي فقد اثر ان السيد تلقى من والي الكوفة رداء عدنيا، فأحب أن يداعبه فيه فكتب إليه يشكره ويستزيده من طريق الدعابة:

وقد أتانا رداء من هديتكم فلا عدمتك طول الدهر من وال
هو الجمال جزاك الله صالحة لو أنه كان موصولا بسربال

يقول المحدث: فبعث إليه بخلعة تامة وفرس جواد وقال: يقطع عتاب أبي هاشم واستزادته إيانا.

وعلاقاته بالكوفة ـ فيما يظهر ـ لم تقتصر على المحدثين وذوي السلطان وانما تجاوزتهم إلى الامتزاج بشتى الطبقات وبخاصة بالشعراء الذين يحملون فكرته في الدفاع عن أهل البيت واستقصاء مآثرهم الطيبة.

وقد حدثنا التاريخ عن علاقاته مع شاعرين علويين إماميين اشتهرا بالولاء للإمام الصادق عليه السلام وهما سفيان بن مصعب العبدي وجعفر بن عفان الطائي الملقب بالمكفوف، وقد اعتز بالأول منهما واعتمد على ذوقه الشعري واكبره فكان لا يهمه أن يقرأ عليه ما يجد عنده من شعر ويأخذ رأيه فيه وربما اعتمد على بعض ملاحظاته الفنية مع اعتزازه بنفسه، ومن ذلك ما حدثوا أنه سمع لعمران بن حطان شاعر الخوارج بيتاً يصحح فيه للثائرين في النهروان ثورتهم على إمامهم ويدين بما دانوا به، في ذلك يقول:

إني أدين بما دان الشراة به يوم النخيلة يوم الجوسق الخرب

فقال السيد في قباله:

إني أدين بما دان الوصي به يوم النخيلة من قتل المحلينا
وبالذي دان يوم النهروان به وشاركت كفه كفي بصفينا
تلك الدماء معاً يا رب في عنقي ومثلها فاسقني آمين آمينا

ثم عرض هذه الأبيات على الشاعر العبدي فخطأ له هذا الشطر (وشاركت كفَّه كفي بصفينا) وقال لو شاركت كفك كفه لكنت مثله ولكن قل تابعت كفه كفي لتكون تابعاً لا شريكا.

وقد أعجبته الملاحظة فأخذ بها وظل يقول بعد ذلك: أنا أشعر الناس إلا العبدي.

وهذا الاعتراف منه مع اعتزازه بشاعريته لم يكن مبعثه هذا التعديل فيما أرى، وإنما سبقته للشاعر مكانة في نفسه تصحح معها هذا الاعتراف.

ونظرته للشاعر الآخر قد تكون على عكس نظرته لهذا العبدي فهو لا يرى فيه الشاعر الذي يحسن أن يمدح أمثال الأئمة من أهل البيت. قال علي بن جبلة اجتمع عندنا السيد بن محمد الحميري وجعفر بن عفان الطائي فقال له السيد: ويحك أتقول في آل محمد عليهم السلام:

مــا بــال بيتكـم يخـرب سقفـه	وثيـابكـم مــن أرذل الأثــواب

فقال الشاعر ـ وقد استفزه هذا الانكار ـ: فما أنكرت من ذلك؟

قال السيد: إذا لم تحسن المدح فاسكت، أيوصف آل محمد بمثل هذا؟! ولكنني أعذرك، هذا طبعك وعلمك ومنتهاك، وقد قلت أنحو عنهم عار مدحك. ثم أنشده قصيدة جاء فيها:

أقســـم بــــالله وآلائـــه	والمــرء عمّــا قــال مســؤول
إن علـــي بــن أبــي طــالــب	علــى التقــى والبــر مجبــول
وانـــه كــان الإمــام الــذي	لــه علــى الأمــة تفضيــل
يقــول بــالحــق ويعنــي بــه	ولا تلهيــه الأبــاطيــل
كــان إذا الحــرب مــرتهــا القنــا	وأحجمــت عنهــا البهــاليــل
يمشــي إلــى القــرن وفــي كفــه	أبيــض مــاضــي الحـد مصقــول
مشــي العفــرنــا بيــن أشبــالــه	أبــرزه للقنــص الغيــل

ثم يلطف له من عنف لهجته وهو يقول له: هكذا يقال فيه يا جعفر وشعرك يقال مثله لأهل الخصاصة والضعف.

ويظهر أن لمكانة السيد في نفس شاعره المكفوف وايمانه بصحبته وسلامته واندفاعه عن واقعية وحسن طويه مع ما يعرف عنه من ثقافة واسعة، كل ذلك مما أوجب أن يعترف له بالجميل على ما القاه من درس يمكنه من فهم الأساليب التي يجب أن تسلك في أماديح العظماء ويقوم له ـ كما تقول الرواية ـ فيقبّل رأسه ويقول له: أنت والله يا أبا هاشم الرأس ونحن الأذناب.

وهكذا وفي حنايا هذه العواطف وامثالها كان يقضي عادة جملة اوقاته في الكوفة ولا سيما بعد تشيعه الأخير، وبعدما حصل على تلكم المكانة لدى ائمتهم عليهم السلام وسنرى كيف يحدثنا عند موته عن مدى علائقه العاطفية بها فيما يأتي من فصول.

- ١١ -

أما سلوكه العام مع السلطة القائمة فقد طرأ عليه تغير طبيعي مستمد من نظرته لهم بحكم ما توحيه مبادئه الجديدة. فالذهنية الكيسانية التي كان ينظر من خلالها سلطة الحاكمين، فلا يرى فيها ما يوجب مؤاخذتها والنقمة عليها إلا في حدود ما يطرأ فيها من ظلم لم تعد هي الذهنية المالكة لنظرته إليهم، فقد تبدلت بتبدل مذهبه واصبح ينظر إلى الخليفة كما ينظر إلى المالك غير الشرعي، وينظر إلى تصرفاته فيرى فيها جميعاً تصرفات غير شرعية لاعتدائه على منصب الإمامة واغتصابها من صاحبها القائم الفعلي.

أما حدود ذلك التغير وموقفه منه فهذا ما كدنا أن نجهل بعض ما له من خطوط، وإن كان الذي يغلب على ظني أنه لم يتعد في سلوكه ما رسمه لنفسه مع المنصور من حدود سابقة. وقد استغل من مذهبه في التقية ومن مسامحة المنصور له ما يوفق فيه بين رغباته الذاتية في الاستمرار بتبشيره المذهبي وبين مسالمة المنصور وعدم الانكار عليه، بل عدم تركه لمديحه وإن كان لم يثبت فيما لدينا من تاريخه أنه مدحه بعد ذلك الزمن.

وقد اشيع في اخريات عهد المنصور أن السيد توفي في واسط وان أهلها أبوا عليه أن يدفنوه، فقال المنصور في ذلك: والله لئن تحقق عندي لاحرقنها. وهي عاطفة تدل على أن صاحبها ما زال محتفظاً بحقه الذي سجّله على نفسه وعلى كل هاشمي كما مر في سابق من الأحاديث.

وينتهي عهد الخليفة فيستقبل ولده المهدي عهداً جديداً ويستقبل صاحبنا:

عهداً جديداً بالنسبة إليه أيضاً، وأول ما يلاحظه على المهدي أنه استغل من اسمه ولقبه طريقاً يسلك منه إلى دعوى عريضة لا يستطيع أن يصبر عليها بحال، لأنها تصطدم بصميم عقيدته في إمامة المنتظر. فقد ادعى الخليفة بانه هو محمد المهدي الذي بشر به رسول الله ﷺ وقال أنه يملؤها عدلاً وقسطاً.

وهذا لا يتّفق مع عقيدته الإمامية التي كانت إلى ذلك التاريخ تعتقد أن المهدي لم يولد بعد وأنه سيولد بعد حين، فكيف يدعي الخليفة ذلك ويضلل به الناس؟ وهذا بالطبع ما لا يستطيع أن يصبر عليه بحال، فاسمعوه كيف ينشد في التعريض به:

تظنـــا انـــه المهـــدي حقـــاً ... ولـــم تقـــع الأمـــور كمـــا تظنـــا
ولا والله مـــا المهـــدي إلا ... إمـــامـــاً (كـذا) فضلـه أعلـى وأسنـى

وتبلغ المهدي هذه الأبيات وهو رجل جديد العهد لم يجرب بعد كما جرب أبوه المنصور ليصبر عليه وعلى امثاله ويحتفظ بهم كدعاة لتوطيد عناصر ملكه في البلاد، فيغضب ويقول فيه هذا شعره وما احتاج فيه برهاناً على ذلك ثم يطلبه، فيضطر هو إلى الاستتار والتخفي عنه ويظلّ متخفياً مدة يضيق بها عليه الأمر فيفزع بالآخرة إلى التقية التي هي من مبادئ عقيدته الجديدة، ويتخذ منها مجنا يتدرع به للطوارئ ثم يظلّ يلتمس الفرص لإرضائه وربما استغل أقربها إليه، وقد تكون هي فرصة أخذ البيعة لولديه موسى وهارون، فيقبل عليه يهنئه بهذه القصيدة.

مـــا بـــال مجـرى دمعـك الســاجـم ... أمـــن قـــذى بـــات بهـــا لازم
أم مـــن هـــوى أنـــت لـــه ســاهـــر ... صبـــابـــة مـــن قلبـــك الهـــائـــم

إلى أن يقول:

آليت لا أمدح ذا نائل ... من معشر غير بني هاشم
إذ لهم عندي يد المصطفى ... ذي الفضل والمن أبي القاسم
فإنها بيضاء محمودة ... جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أبي جعفر ... خليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهدي ثم ابنه ... موسى على ذي الإربة الحازم
وللرشيد الرابع المرتضى ... مفترض من حقه اللازم
ملكهم خمسون معدودة ... برغم أنف الحاسد الراغم
ليس علينا ما بقوا غيرهم ... في هذه الأمة من حاكم

وهذا الإغراق في المديح الذي ينتظم هذه الأبيات ولم يعودنا عليه فيما سبق من شعره، ربما يدل على مدى اضطراره إلى اتقائهم ومصانعتهم ليكفوا عن مقابلته وترصد كل ما يصدر عنه من أمور.

وتنقطع أخباره بعد هذا مع المهدي وربما آثر العزلة والاتجاه إلى الله ـ بعد توبته تلك ـ والانصراف عن مصانعة أو ملاحاة السلاطين فلم نعد نسمع عنه في ذلك شيئاً إذا استثنينا بعض حوادثه:

مع الرشيد:

فالتاريخ يحدثنا أن وشاية بالرفض عليه سبقت إلى هذا الخليفة عندما ولي الأمر فأحبّ أن يقف على جليتها، فارسل عليه وحدثه في ذلك. فقال السيد ـ بشيء من الجرأة والحزم ـ: إن كان الرافضي هو الذي يحب بني هاشم ويقدمهم على سائر الخلق فما أعتذر منه ولا أزول وإن كان غير ذلك فما أقول به ثم أنشد أبياتاً جاء فيها:

علي وأبو ذر ... ومقداد وسلمان

وعبـــــــاس وعمـــــــار وعبـــــــد الله اخـــــــوان

دعـــوا فـــاستـــودعـــوا علمـــاً فـــأدّوه ومـــا خـــانـــوا

أديـــــــن الله ذا العـــــــزة بـــالـــديـــن الـــذي دانـــو

وعنـــــدي فيـــــه إيضـــــاح عـــن الحـــق وبـــرهـــان

ومـــا يجحـــد مـــا قـــد قلـــت فـــي السبطيـــن انســـان

وإن أنكـــــر ذو النصـــــب فعنـــدي فيـــه عـــرفـــان

وإن عـــدوه لـــحبي ذنبـــاً وحـــال الـــوصـــل هجـــران

فـــلا كـــان لهـــذا الـــذنـــب عنـــد القـــوم غفـــران

فكـــم عُـــدّت إســـاءات لقـــوم وهـــي إحســـان

وســـرّي فيـــك يـــا داعـــي ديـــن الله إعـــلان

فحبـــي لـــك إيمـــان وميلـــي عنـــك كفـــران

فعـــد القـــوم ذا رفضـــاً فـــلا عـــدوا ولا كـــانـــوا

وقد أوفت هذه القصيدة الرائعة على الصورة المطلوبة منها وأحاطت بالموضوع من جميع جوانبه، فشرحت للخليفة أسرار اتهامه بالرفض وعدم مبالاته بذلك ما دام لا يحيد في مبادئه عن مبادئ علي والعباس وعبد الله والحواري من أصحاب رسول الله كعمار وسلمان، وماذا يقول الخليفة فيه أينكر عليه أن يدين بدين آبائه وهو يملك الأدلة والبراهين على صحته كلما احتاج ذو النصب إلى أدلة وبراهين، على أن بعض دعاواه بديهية لا يمكن أن يجحدها إنسان، فإن كان هذا هو الذنب:

فـــلا كـــان لهـــذا الـــذنـــب عنـــد القـــوم غفـــران

فكـــم عـــدت إســـاءات لقـــوم وهـــي إحســـان

تقول الرواية فما تمالك الخليفة دون أن رضي عليه ووصله بمال، ووصله بنو هاشم كذلك لموقفه هذا بأموال.

وفي الأغاني أنه مدحه بقصيدتين وقد يكون ذلك بعد هذه الحادثة اتقاء لشره وتفادياً من تعريض نفسه لأقاويل الوشاة، ولكنه لم يذكر القصيدتين لنعرف نوعهما مما سمعناه في هذه الدولة من شعر، وقد أضافت هذه الرواية ـ مما ينفعنا في بحثنا ـ أن الرشيد أجازه عليهما ببدرتين ففرقهما السيد ولم يتملك منهما شيئاً، وهذا شيء جديد بالنسبة إليه فما كنا سمعنا عنه من قبل أنه فرق شيئاً من أموال السلاطين. والذي أظنه أن هذه الظاهرة جاءته من مبادئ مذهبه الجديد.

فالكيسانية ـ كما مر بنا من قبل ـ لم تكن لتمنع من خلافة هؤلاء فلا موضع للتحرج من أموالهم، ولكن عقيدته الإمامية ـ فيما نعلم ـ كانت لا تعترف بالخلافة العباسية ولا تقر لها سياستها في التفريط بأموال الأمة وترى أن هذا المال يعود إلى المسلمين وإلى إمامهم الشرعي. ومع ذلك فكيف يصح له التصرف فيه فلا بد إذن من تفريقه فيهم ولو على سبيل التصدق به عن أصحابه الشرعيين، وربما كان ذلك بأمر من إمامه والذي يظهر أن الرشيد أدرك كل ذلك فقال: «أحسب أبا هاشم تورع عن قبول جوائزنا» كما في تتمة الرواية.

ويظهر أن هذا التورع هو الذي أخره بقية عمره عن الاتصال بهم وبمن يرتبط معهم من الناس، فلم يحدثنا التاريخ بعد ذلك عنه بشيء معهم إلى أن حان مصيره الأخير فمات.

- ١٢ -

وقد كان موته مسرحاً لكثير من الاختلافات، وأول ما يواجهنا في ذلك منها اضطرابهم في تحديد زمن الوفاة ومكانها، فهناك بعض الروايات تزعم له أنه توفي في أيام المنصور بدلاً من أيام الرشيد، كما تقول الأخرى وفي واسط بدلاً من بغداد. والذي يقربه صاحب أعيان الشيعة أن إشاعة في وفاته حدثت هناك ولم تصح فيما بعد وهو احتمال له حظه من الوجاهة، وعليه تنزل بعض الاحاديث التي وقعت في أيام المنصور كإخبار المخبر إمامه الصادق بذلك وترحم الإمام عليه وكقول المنصور المتقدم في أهل واسط ونظائر ذلك.

أما إذا أردنا أن لا نقبل هذا الاحتمال فلا طريق لنا إلى الجمع بين الروايات المختلفة وربما تعين علينا أن نلقي هذا القسم منها ونقتصر على القائلة بوفاته في زمن الرشيد لاكتنافها بما يلحقها في القضايا اليقينية القطعية وحسبنا منها ما وعيناه من قضاياه بعد ذلك التاريخ كما تقدم في فصولنا السابقة.

والقائلة أنه توفي في زمن الرشيد هي الأخرى لم تسلم من الاختلاف أيضاً، فبعضها تقف به عند سنة ١٧٣ وأخرى تمتد به إلى ١٧٨ وثالثة إلى ١٧٩ وتحقيقها لا يهم كثيراً فليس عنده من الأحداث ما يتوقف تحديده على تعيين إحدى هذه الاقوال، وحسبها أن تجمع على أنه توفي وهو شيخ قد نيف أو كاد على السبعين كما تجمع على ما يحيط وفاته من ملابسات.

أما مرضه الذي توفي فيه فقد أغفل تعيينه المؤرخون وكل ما ذكروه من ذلك بعض العوارض التي كانت قد اعترته وهو مشرف على الموت، فقد

حدثوا باجماعهم أن نكتة سوداء ظهرت في وجهه ـ وهو في حالة نزع وإغماء وحوله من أعدائه وأشياعه جماعة ـ فطبقت وجهه وكان ذلك مثاراً لكثير من الظنون. فقد اعتبره اعداؤه من العواد شارة سوء العاقبة ففرحوا له ـ كما تقول بعض الروايات ـ وجمجم في تعليله أولياؤه من الشيعة وغمّهم وأربكهم هذا المنظر ثم أفاق ـ فيما يقولون ـ هو إفاقة فنظر إلى ناحية القبلة ثم قال: يا أمير المؤمنين أيفعل هذا بوليك ـ قالها ثلاث مرات ـ فتجلى والله ـ والقسم للراوي ـ عرق بياض في جبهته فما زال يتسع ويلبس وجهه حتى صار كله كالبرد، وافتر ضاحكا ـ كما في رواية اخرى ـ وانشد:

كذب الزاعمون أن علياً ... لا ينجي محبه من هنات
قد ـ وربي ـ دخلت جنة عدن ... وعفا لي الإله عن سيئاتي
فابشروا اليوم أولياء علي ... وتولوا علي حتى الممات
ثم من بعده تولوا بنيه ... واحداً بعد واحد بالصفات

ثم اتبع ذلك بقوله: أشهد أن لا إله إلا الله حقاً حقا. وأشهد أن محمداً رسول الله حقاً حقا ـ وفي لفظ السروري صدقاً صدقا ـ واشهد أن علياً أمير المؤمنين حقاً حقا. ثم غمض عينيه بنفسه فكأنما كانت روحه ذبالة طفأت أو حصاة سقطت. كذا تقول الرواية وقد ورد مضمونها من طرق كثيرة بعضها غير شيعي، فلا يمكن أن نتهم رواته بالوضع والاختلاق.

ولكن صاحب لسان الميزان ـ وهو بالطبع ممن لا يتفق مع السيد بالعقيدة ـ بعد أن ينقل بعض تلكم الروايات يعقبها بقوله: هذه حكاية مختلقة ـ إلى أن يقول ـ وأصح من هذا ما قرأت بخط الصفدي قال: قال أبو ريحانة ـ وكان من أهل الورع ـ حدثني جار السيد قال: جاءنا وليه فقال: إن هذا وإن كان مخلطاً فهو من أهل التوحيد وهو جاركم فادخلوا لقنوه وكان في الموت ففعلنا فقلنا له وهو يجود بنفسه: قل لا إله إلا الله فاسود وجهه وقال

لنا: وحيل بينهم وبين ما يشتهون. ومات من ساعته.

وما أدري لِمَ كانت تلكم الرواية مختلقة وهذه اصح منها؟ مع أن تلك معتضدة بروايات كثيرة تلحقها بالمتواترات وهذه رواية مجهول راويها، أفليس من الحق أن يسأل عن ذلك الجار فلعله كان متهماً بالنصب لأهل البيت قبل أن يأخذ بروايته ويعتمد عليه كما اتهم هو راوي هذه الرواية بالرفض فاتهمه بوضعها.

وقد روى نفس هذه الرواية الكتبي في فوات الوفيات واضافها عن رجل كان أبوه جار السيد وهي إضافة تزيد الرواية وهناً على وهن لاضافتها إلى رجل مجهول، هذا بالاضافة إلى ما يحيطها من ملابسات تقتضي التوهين، فأين كان عنه الشيعة وهم كثر ببغداد وهو سيد محترم لديهم ليتولوا تلقينه؟! ثم لِمَ لم يلقنه وليه بنفسه بدلاً من ان يضطر إلى هذا الجار المحترم؟ ثم أين كان عنها الرواة من مخالفيه قبل الصفدي ليملؤا بها الكتب والطوامير؟! ذلك ما نترك أمره إلى صاحب لسان الميزان.

وليس المهم في الباب تحقيق هذه الرواية ـ وعاطفة الراوي طافحة عليها ـ وانما المهم أن نلتمس لهذه الحالة الغريبة تعليلها العلمي ـ بعد أن اجمع الثقات على روايتها والايمان بها ـ وهل كانت ذات علاقة بعقيدته؟

لا أبعد ذلك وإن كنت لا اجزم به والذي أخاله في ذلك أن صاحبنا ـ وقد عرفنا مبلغ ايمانه بالله عز وجل وبالرسالة وبالمعاد ثم مبلغ ايمانه بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ـ كان قد استعرض ـ وهو مقبل على يوم الجزاء ـ ما قدمه أمامه من أعمال وقد أحضر تداعي المعاني ما كان له في شبابه من بدوات لا يقرها الاسلام بحال، واحضر معها ما أنذر عليها الإسلام من ايقاع العقاب فاظلم في عينيه ما حوله من الآفاق وطبق اليأس أرجاء نفسه فصبغها بلون قاتم، وربما سرى لا شعوره ذلك اللون إلى وجهه فاتخذ له من هذا

التغير ما يرمز به إلى ما يختلج فيه من يأس وقد حدثنا علماء النفس عن مدى تأثير بعض الحالات النفسية على الجسم وضربوا لذلك الامثال بتأثير انفعالات الغضب والخوف مثلاً على الأعضاء، وما يمنع أن تكون هذه الحالة من بعض الشواهد على ذلك.

وما نقوله هنا يقال في تعليل حالته الثانية فهذه لمعة من الأمل تنبثق من أعماقه فتنقذ الموقف وتتدارك الأمر فتحضر أمامه ما قدمه من حسنات، ومنها ذلك الولاء لأهل البيت وللإمام علي عليه السلام ـ وهو علامة المؤمن فيما تقول الروايات التي لا يختلف في صحتها الفريقان وسبق أن حفظ الكثير منها ونظمها في شعره ـ وهذا وحده كاف لأن يأخذ بيده إلى شاطئ السلامة فلِمَ هذا اليأس إذن؟ وما موضعه مع تلكم الحسنات وعفو الله واسع وباب الشفاعة من إمامه مفتوح أمامه؟

فليستنجده إذن وليقل يا أمير المؤمنين أهكذا يفعل بوليك ويقولها فيضيء الرجاء نفسه بنور الإيمان فيتخذ ـ لا شعوره ـ منه رمزاً إلى ذلك الرجاء ويسري به إلى وجهه ليكشف ذلك اللون عنه، إسمعه كيف ينشد:

كذب الزاعمون أن علياً ... لا ينجي محبه من هنات
قد ـ وربي ـ دخلت جنة عدن ... وعفا لي الإله عن سيئاتي

تأملوا هذه الأبيات ففيها ومضات خاطفة ربما القت بعض الأضواء على ما قلناه.

نقول هذا ـ غير جازمين ـ والرأي النهائي لذوي الاختصاص في هذا الموضوع، فإن وافقونا في التعليل فذاك وإن وجدوا لها تعليلاً آخر أخذنا به وإلا فلتكن هذه المسألة من مجاهيل النفوس الغامضة وكم في النفوس من غموض لم يكشف عنه العلم حتى الآن.

ثم ماذا؟ ثم اطفئت الذبالة فهرع الشيعة من الكوفيين الذين كانوا في بغداد ـ ومعهم سبعون كفناً ـ وكان قبل موته قد بعث إليهم مع مولاه قصيدة يتشوق بها اليهم ويشرح لهم فيها أسرار عواطفه ثم ينعى إليهم نفسه ويطلب إليهم أن يحضروا جنازته ولا يتولى أمره النصاب قال فيها:

يـا أهـل كـوفـان انـي وامـق لكـم ... مذ كنت طفلاً إلى السبعين في الكبر

اهـواكـم واواليكـم وامـدحكـم ... حتمـا علـي كمحتـوم مـن القـدر

لحبكـم لـوصـي المصطفـى وكفـى ... بـالمصطفـى وبـه مـن سـائـر البشـر

والسيـديـن أولـي الحسنـى ونجلهـم ... سمـي مَـن جـاء بـالآيـات والسـور

هـو الإمـام الـذي نـرجـو النجـاة بـه ... مـن حـر نـار علـى الأعـداء مستعـر

كتبـت شعـري إليكـم سـائـلاً لكـم ... إذ كنـت أنقـل مـن دار إلـى حفـر

أن لا يلينـي سـواكـم أهـل بصـرتنـا ... الجـاحـدون أو الحـاوون للبـدر

ولا السـلاطيـن ان الظلـم حـالفهـم ... فعـرفهـم صـائـر لا شـك للنكـر

وكفنـونـي بيـاضـاً لا يخـالطـه ... شيء من الوشي أو من فاخر الجبر

ولا يشيعنـي النصـاب انهـم ... شـر البـريـة مـن انثـى ومـن ذكـر

عسـى الإلـه ينجينـي بـرحمتـه ... ومـدحـي الغـرر الـزاكيـن مـن سقـر

وقد سقنا هذه الأبيات كلها ـ على ما يبدو فيها من ضعف المرض ـ لاشتمالها على جملة عقائده التي مات عنها فأئمته بعد الوصي جماعة عبر عنهم بلفظ الجمع (السيدين أولي الحسنى) وامامه الذي سيغيب هو نجلهم لا محمد بن الحنفية الذي كان أخاً للحسنين، والسلاطين ظلمة لا يجب أن يشهدوا جنازته ولا النصاب ولا أهل البصرة الجاحدون، مع رغبته الشخصية أن يتولوا تكفينه هم، إلى آخر ما قال في وصيته التي تتفق مع عقائده الإمامية تماماً وهي من الملابسات التي قلنا عنها سابقاً أنها لا تصل إليها أخيلة الواضعين.

ويقال إن غلامه اشتبه عليه الأمر فذهب إلى أهل البصرة فسبوه وسبوا صاحبه ثم عدل إلى أهل الكوفة فهرعوا إليه ويظهر أنه كان لموته رنة أسى عميقة لدى الشيعة في بغداد، فتجمهروا باهتمام لاجراء مراسم الدفن وشعرت السلطة بذلك فأوفدت عن البلاط علي بن المهدي وتولى البلاط تكفينه ورد الأكفان على الكوفيين ثم صلى عليه ابن المهدي العباسي وكبر خمساً على طريقة الشيعة الإمامية ودفن بالجنينة ببغداد.

وقد يكون هذا الاهتمام من البلاط صدى لذلك الحق الذي سجله له المنصور سابقاً على كل هاشمي لا اهتمام سياسي فحسب.

أما بعد وقد سايرنا السيد من بداية حياته بعمان إلى أن واريناه في حفرته ببغداد وخبرنا في ضوء ما سجّله المؤرخون جل ما يتعلق به من شؤون بعد محاكمات عديدة لأغلب ما أثر عنه، وانتهينا أو هكذا نخال إلى حقائق لا ينفذ إليها بالنظرة العابرة في كتاب أو كتابين إبليس من الحق ـ وقد بلغنا من صحبته هذا المبلغ ـ أن ننظر إلى ما سجله المؤرخون عليه من هفوات لنعرف مكانها من الصحة تقريراً للحقيقة الواقعة.

- ١٣ -

وأول هذه الهفوات وأهمها فيما يتهمونه به هو القول بالتناسخ، وأسبق من اتهمه - فيما لدينا - بذلك من القدماء أبو محمد علي بن حزم الظاهري في كتابه الفصل حيث قال: «وقالت طائفة من الكيسانية بتناسخ الأرواح وبهذا يقول السيد الحميري الشاعر» ص١٨٢ ج٤.

ولحق به من المحدثين معالي الدكتور طه حسين بك في كتابه ذكرى أبي العلاء ص ٣٥٨ ولكنه وسع في التهمة إلى مطلق الشيعة ولم يخصصها بفريق من مذاهبها دون فريق كما أضاف إليها اتهامهم بالحلول والرجعة، قال: «والتناسخ معروف عند العرب منذ أواخر القرن الأول والشيعة تدين به وببعض المذاهب التي تقرب منه كالحلول والرجعة وليس بين أهل الأدب من يجهل ما كان من سخافات السيد الحميري وكثير في ذلك».

والذي نودّه أن نقول لمعاليه: إذا صح أننا من أهل الأدب أننا نجهل هذا التعميم في نسبة هذه الأمور إليه، وكلما نعرفه أنه كان يقول بالرجعة كما أننا نجهل مع شدة علاقتنا ببعض الفرق الشيعية وتأريخها من بداية حياتها، هذا الحكم المطلق عليها.

والذي نعرفه أن بعض فرقهم منذ بدايتها ولا تزال تقول بكفر من يذهب إلى القول بالحلول أو التناسخ، وإذا شاء قدمت له المصادر من مؤلفاتهم على ذلك تنويراً للحقيقة الواقعة التي نرجو أن تكون قد اختلطت عليه لا عن سوء نية.

وعلى أي حال فالذي يهمنا أن نعرف مصدر هذه النسبة إلى صاحبنا وقد يكون هو ابن حزم فالكلام على هذا يساق إليه.

والذي نملك القول فيه أننا لم نجد ـ على كثرة ما بحثنا في مخلفات صاحبنا ـ ما يصحح نسبة القول بالتناسخ إليه، ولعل منشأ هذه التهمة هو جهله بالفرقة التي ينتمي إليها هذا السيد من فرق الكيسانية يوم كان كيسانياً. وقد عيناها في موضعها من هذا الكتاب وهي لا تؤمن فيما نعرفه بالتناسخ أو الحلول.

وثانية الاتهامات أنه كان يؤمن بالرجعة وقد اتهمه بها غير واحد من المؤرخين، وهي تهمة لها سندها التأريخي القويم فلا يمكن المناقشة فيها من هذه الناحية، والمهم في الباب أن نتساءل بعد تسليم صحتها عن مصدر سخافتها التي ذهب إليها الدكتور في كلامه السابق لنكون على بيّنة في مجال التشنيع بها عليه.

وهذا المصدر قد يكون منشؤه لدى الدكتور فرضاً واحداً من فرضين ليس لهما ثالث في مجال التصور العقلي.

أولاهما: أن يقول إنها ممتنعة عقلاً والايمان بالممتنع من أسخف السخافات، وللسيد أن يقول في جوابه وما يمنع العقل من أمثال هذه الشؤون مع ايمانه بقدرة الله عز وجل، وقد آمن بالمعاد الجسماني بعد الموت لصحة وروده في الشرائع السماوية، وإذا صح له ذلك فلم لا يصح أن يؤمن بعودة الميت إلى دار دنياه إذا قام البرهان على ذلك من الشارع المقدس، والايمان بها ليس بأعظم من الإيمان بالبعث في مجال المقارنات، فلِمَ كل هذا الاستنكار؟ وما أدري ما نقول في جوابه عن هذه المرحلة؟

وثانيهما: أن نقول إنها ممكنة في نظر العقل ولكنه ليس كل ممكن واقعاً ـ كما يقولون ـ فمن أين للسيد أن يثبت وقوعها من الآيات أو الأحاديث، وهي طريقنا الوحيدة في أمثال هذه الأمور، وللسيد أن يقول في

جوابه: إنني قدمت بوجهة نظري في ذلك أمام المنصور وأدليت بأدلتي من السنة والكتاب على مخاصمي سوار القاضي ووقف عن جوابي هناك، فإن وسع الدكتور أن يرجع إليها بشيء من النقد والتمحيص فذاك، وله بعد هذا أن يقرني على وجهة نظري فيحتفظ لي من أجر المجتهد بعشر حسنات أو ينكر عليَّ صحة استنباطي فيهبط بأجري إلى حسنة واحدة، وقديماً قيل المجتهد إن أصاب فبعشر وإن أخطأ فبواحدة.

وهو بهذا الجواب قد يكون على حق، وربما كانت لأدلته ظواهر توافق وجهة نظره وإن حاول أن يصرفها عنها بعض من يختلف معه في الرأي وعلى أيٍ فلسنا هنا بصدد ترجيح أحد الرأيين على الآخر، وكل ما نقوله الآن إن الإيمان بها ليس من ضروريات الدين ولا إنكارها من الضروريات فما أغنانا عن التهاتر وشتم بعضنا بعضاً إذا كان الخلاف مبنائياً كما يعبر الفقهاء.

والاتهامة الثالثة:

ما سجله عليه الدكتور طه في حديث الأربعاء ص٣١٧ ج٢ في معرض التحدث عنه، قال: «كان سخيفاً ضعيف العقل شديد الايمان بالخرافات والاوهام».

وما أدري ما يقصد بالاوهام والخرافات؟ فإن كان يريد بها ما سجله في ذكرى أبي العلاء فقد عرفت مبلغ علاقته بالواقع وإن كان يريد ـ كما هو غير بعيد ـ ايمانه بالمعجزة الخارقة للسنن الطبيعية المألوفة كما يبدو من شعره في أهل البيت، فقد سبق لنا أن قلنا إن السيد في ذلك كان كأي مسلم في ذلك العصر بل جميع العصور لا يمنع المعجزة من القادر عليها كشخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً، والمسلمون كلهم يرون في القرآن معجزة كما يراها القرآن نفسه في تحديه لمجتمعه بالاتيان بسورة من مثله، وإذا صح وقوع

المعجزات خارجاً فالإيمان بها ليس من السخافة بشيء إلا أن يكون المسلمون كلهم سخفاء ومنهم الدكتور طه الذي آمن ببعضها كما يبدو من بعض كتبه كعثمان والوعد الحق حيث أرسل وقوعها إرسال المسلمات.

وإن كان للدكتور أن يختلف معه في شخص القادر على المعجزة فله أن يخصه بالنبي، ولصاحبنا أن يناقشه بذلك فيما أثر لديه من أحاديث، وللدكتور أن يخصها بمورد الضرورة وللسيد أن يرى تلكم الموارد التي نظمها شعراً من الضرورات، ومع هذا فالاختلاف لا يتجاوز المباني الاجتهادية فلا تستحق أن نتراشق في سبيلها بالسخف وأمثاله.

والرابعة: ما يبدو من إيمانه بحلّية المتعة كما اتهمه معاصروه، وهي تهمة قائمة على اعترافاته الذاتية وقد عرفنا دليلها الفقهي منه فحالها حال سابقاتها من الفروع.

والخامسة: ما وجد في شعره من تعرض للخلفاء ولبعض الصحابة ورائده في ذلك أنه كان يتهمهم بسوء النية بعدما صح لديه القول بالنص، لأنه كان لا يرى مبرراً لإعراضهم عن الخليفة الشرعي وعلى هذا المعنى ينزل كل شعره الذي قاله في السباب.

والسادسة: وهي خاتمة ما نقوله في هذا الموضوع ما لوحظ عليه من شربه للخمر وإن لم يسجله على نفسه في شعره الذي قرأناه، وهو منكرٌ لا يقره الاسلام عليه بحال، وما عرف عنه أنه اجتهد في حلّيته وانما كان اقدامه عليه بدافع من نزوات الشباب وحسبه من شيوع الخمر وانتشاره بين الشعراء من أصحابه ما يشجعه عليه، والانسان بدوافعه الغريزية عرضة للآثام العظام.

وفي عقيدتي أنه حينما أقدم عليها في بداية عمره لم يقدم وهو مستبيح

لها كما يتوهم بعضهم، فما كان لمسلم أن يصنع ذلك وإن كان من أمره ما يكون وكل ما هنالك أنه كان يقصدها في بدايته للتخفيف عن حدة انفعالاته النفسية التي شاهدنا بعضها في حنايا هذا الكتاب.

ومهما يكن من أمر فهذه الموبقات التي ثبت لدينا منها ما يستحق أن يلام عليه لم تكن لتستمر معه حتى نهاية حياته.

فقد سبق أن حدثنا عباد بن صهيب(١) أنه شاهد كتابه إلى الإمام الصادق عليه السلام الذي يعلمه فيه بالتوبة مما كان عليه.

وفي الأغاني حديث عن السيد بهذا المؤدى فلا مجال بعد هذا لاتهامه، وبخاصة وأن تاريخه بعد ذلك الزمان لم يحدثنا عن ارتكابه لشيء من هذه الأمور، وهكذا قدر لهذا السيد العربي أن يعيش كريماً ويموت وهو نقي الأثواب.

---

(١) راجع صفحة ٧٨.

القسم الثاني

١ ـ كمية شعره وأسباب تبعثره .

٢ ـ مع نقاده قدماء ومحدثين .

٣ ـ الدخيل في شعره .

٤ ـ بعض خصائص فنه .

٥ ـ شعره القصصي .

٦ ـ شعره الغنائي .




وبعد هذه الجولة في جملة انحاء سيرته نعتقد أن القارئ الكريم الذي تلطف فسابرنا إلى هذا الموضع وقرأ معنا أكثر ما يمكن أن نذكره من شعره في مختلف أدوار حياته، قد أنهى لنفسه تكوين فكرة عامة عن جملة الخصائص الفنية لشعره ووضعه في المستوى الطبيعي له، وربما تطلع إلى رأي مؤلف الرسالة في ذلك ليوازن ويقارن بينها وبين ما ذهب إليه، وهو حق اقتضانا أن نؤخر له هذا الفصل من الكتاب ليتم له كل ذلك كما أشرنا سابقاً، ولئلا نكون قد فرضنا عليه رأياً لم تستوِ بعد شؤونه لديه، وشيء آخر اقتضانا ذلك وهو أن نلمّ بشعره في جملة ادوار حياته ليصح لنا أن نستخلص من بين المجموع جملة خصائصه العامة ولا نقتصر في حكمنا على دور دون دور.

وقبل أن ندخل في صميم البحث أحب أن أطوف بالقارئ الكريم في ارجاء جديدة لم نكن قد طفناها من قبل، فربما ألقت بعض أضوائها على ما كوناه لانفسنا من رأي فاضافت إليه قليلاً أو شذبت منه قليلاً، وهكذا إلى أن تخلص لنا الصورة التي نرجو أن تكون أقرب الصور إلى شخصيته الشاعرة.

- ١ -

وأول ما يقتضينا التنبيه عليه أن دراستنا سوف لا تكون مستوفاة ما دمنا لا نملك من شعره الذي قاله في مجموعة حياته إلا إضمامة قد لا ترتفع في عدها إلى الواحد من كل مئة بيت. وهذا القليل وإن أوفى في تنوعه على جلّ ما نظم فيه من مواضيع ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يقوم بتخطيط الصورة الكاملة له بجميع ما لها من رتوش.

والسيد بإجماع المؤرخين ثالث ثلاثة ممن نظموا الشعر فأكثروا فيه حتى صح لبعضهم أن يبالغ فيقول فيهم: إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والاسلام ثلاثة: (يثار وأبو العتاهية والسيد) وقد قرن بينهم في الكثرة جل من أرخ لهم من ذوي الموسوعات، وفي الاغاني أنه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع.

وقد حاول عمّ الموصلي أن يستقصي شعره في أهل البيت خاصة، فجمع له فيما يقولون ٢٣٠٠ قصيدة، وظن أنه قد استوفى ذلك، ولكن الصدفة جمعته برجل ذي أطمار رثة وكان هو ينشد للسيد شعره، يقول: فسمعني أنشد فانشدني له ثلاث قصائد لم تكن عندي، وعرفت حينئذ أنه ليس مما يدرك جمعه كله. ونظير ذلك ما حدث به عبد الله بن إسحاق الهاشمي قال: جمعت للسيد ألفي قصيدة، وظننت أنه ما بقي عليّ شيء، فكنت لا أزال أرى من ينشدني ما ليس عندي فكتبت حتى ضجرت ثم تركت. وقد حفظ السيد فيما يقال بناته وكن أربعة ١٦٠٠ قصيدة، فكان الرواة يصححون بعض شعره على بعضهم. ونهاية المبالغات في ذلك كله ما حكي من أنه شوهد في بغداد بعير قد أثقلوه بميميات السيد فحسب، فما رأيك بشعره أجمع؟

ومهما يكن شأن هذه الأقوال من الصحة فلا شك أنها تدل على وجود موضع للمبالغة فيه. وقد قدر لهذه الكثرة الضياع، كما قدر ذلك لاكثر كنوزنا العلمية القديمة.

أما أسباب ضياعها فقد شاء أن يعود به طه حسين إلى عاملين اثنين، عامل التورع الديني من تناقلها بين الناس لما تشتمل عليه من سب الصحابة، وعامل الخوف من السلطان لما كان في شعره من مدائح للعلويين وقد كان النزاع السياسي قائماً بينهم وبين السلطة، كما يبدو من مواقف محمد وأخيه من المنصور، ولهذين التعليلين أساس في الأغاني فليراجعا هناك.

ونحن لا نرى في هذين السببين ما يوجب أن يعرض أشعاره لكل هذا الضياع. أما أولهما فقد عرفنا من تأريخ ذلك العصر كثرة العناصر التي كانت تتطلب هذا الشعر وتنشره، فالناس لم يكونوا في وقت ما كلهم يجرون على وتيرة واحدة، فهناك الكثير ممن يناغم هذا الشعر عواطفهم فيحرصون عليه ويتناقلونه فيشيعونه بين الناس، وحتى أعداؤه لم يكونوا كلهم متحرجين وحتى المتحرج منهم كالاصمعي مثلاً كان يتطلبه ويستمع إليه وإن وشحه ببعض التوشيحات.

وقد وجدنا في معاصريه مَن كان يحرص على رواية شعره والتحدث به في النوادي العامة، كأبي داود سليمان بن سفيان المسترق، وإسماعيل بن الساحر، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والسدري، وجعفر بن سليمان البصري، ويزيد بن محمد بن مذعور، وفضيل الرسان، وأضرابهم.

وفي هؤلاء مَن كان لا يقره على جل أفكاره ومع ذلك كان يحرص على روايته للناحية الفنية، وهكذا جملة ممن تأخر عنه من الشعراء والنقاد ممن يعنى بأمثال هذه الشؤون، كالحسين بن الضحاك، ومروان بن أبي حفصة،

ومحمد بن زكريا الغلابي، والحافظ الدارقطني، والصولي، وابن عبدون، والعمى، والمرزباني، وأضرابهم. وفيهم من أهل السنة والجماعة مَن خصّوه ببعض المؤلفات، فأين موضع هذا التحرج من هؤلاء؟

والعامل السياسي لم يكن عاملاً مهماً في هذا الميدان، فالنزاع بين العلويين والمنصور لم يكن ليحول بينه وبين قول الشعر وإذاعته، ولم يكن ليمنع الرواة من تناقل شعره وبثه في البلدان. وقد سبق لنا أن فصلنا القول في ذلك في موضعه من هذه الرسالة فليراجع ذلك.

ونؤكد الآن أننا لم نجد من تحرج من رواية شعره لهذه الغاية، كيف وقد أنشد بعد ذلك النزاع ولي العهد أكثر قصائده مديحاً للإمام وتحرشاً بالخلفاء، وقد سبق ذكرها. ورأينا في ولاة البصرة والكوفة والأهواز من قبل المنصور من يعنى بشعره ويهتم به قبل ذلك التأريخ وبعده، بل رأينا في المنصور نفسه في موقفه معه ما يشجع على ذلك. وإذا كان هذا شأن أرباب السلطة فما رأيك في سائر الناس؟ فهذا العامل لم يكن بأقوى من سابقه تأثيراً، فماذا يكون العامل المهم إذن في ذلك؟ .

في عقيدتي أن هذه الكثرة في شعره وعدم تنوع ما يطرقه من مواضيع غالباً، هي التي اخرت الكثير من الناس عن استقصاء وحفظ كل ما له من شعر. وربما اكتفى بعضهم بحفظ بعض القصائد والاكتفاء بها عن الاستقصاء، وأين من الناس من يقصر حياته مثلاً على حفظ ألفي قصيدة لشاعر واحد وأكثرها من نوع واحد.

وقد رأينا مَن همّه التتبع كيف تطرق إليه الملل أخيراً لكثرة ما سجل منه. وهذا المقدار من المتداول له قد يكون من أكثر الشعراء حظوة فيه، لكثرته بالنسبة إلى شعر غيره من الشعراء المسجل في الموسوعات. وأي شاعر سجل له في مختلف الكتب أكثر من ألف بيت؟

وإذا كان هذا العامل يمنع من استظهار شعره كله فلا يمنع من التأليف فيه، ومَن جمع أكثر ما يمكن جمعه من شعره وتسجيله في ديوان، مع العلم أنه لم يعن هو بجمع ديوانه في حياته. وهكذا فقد بلغ عدد من ألّف فيه أو جمع شعره فيما وصل إلينا ـ حتى زمان صاحب الأغاني ـ أكثر من عشرة فيهم من الأعلام أمثال الصولي والدارقطني والمرزباني، وبعد الأغاني ربما يبلغ عدد من ألّف فيه أو في شرح بعض قصائده أكثر من خمسين.

وأي أديب من الأدباء فيمن قرأنا تراجمهم كان قد حظي بمثل هذه العناية، ولكن العوادي الزمنية هي التي عرضت أكثر هذه الآثار للضياع، كما عرضت جملة كنوزنا العلمية والادبية الخالدة، وإلا فكم كان من المهم لو قدر لنا أن نحصل على هذه ٢٣٠٠ قصيدة التي جمعها عم الموصلي أو أن نحصل على الديوان الذي كان يحفظه له الدارقطني مثلاً، إذن لكان لنا في دراسته شأن غير هذا الشأن.

ومهما تكن الأسباب فالشعر الذي خلص لنا من العوادي الزمنية، لا يصلح لتكوين الفكرة التامة عنه كما قلنا من قبل. وليس من الحق أن ندينه بهذا المقدار منه إلا أن نحتاط لأنفسنا، فنحكم على الشاعر الذي يملك هذا المقدار من الشعر مع وقف التنفيذ ـ كما يقولون ـ حتى تكشف لنا الزوايا عن ديوانه أو عما يلقي عليه من الاضواء أكثر من ذلك.

ـ ٢ ـ

على أننا لا نود أن نسارع بالحكم قبل أن نستعين على ذلك بملاحظة آراء النقاد قديماً وحديثاً فيه، في حدود ما يبدو لهم من شعره ورأيه هو في نفسه، فماذا يقولون.

هنا تختلف آراء النقاد مع اشتراكهم في الارتفاع به إلى مستوى كبار الشعراء في زمنه فبعضها تكبره مع اغفالها لذكر الأسباب لذلك، فهذا أبو عبيدة يسأل عن أشعر المولدين فيجيب: السيد وبشار. ويسأل مرة ثانية عن أشعر الناس فيقول: من شبّه رجلاً بريح عاد، يريد قوله:

إذا أتى معشراً يوماً انامهم ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ انامة الريح في تدميرها عادا

وهذا الاصمعي يسأل عن أشعر الشعراء فيقول في الجواب من قال:

كأن أكفهم والهام تهوى ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ عن الأعناق تلعب بالكرينا

أما لماذا فضل في نظر هذين على الناس أو الشعراء أو المولدين؟ ذلك ما لم يحدثونا عنه إلا أن يكون قوله لهذين البيتين الرائعين أساساً في نظرهما. لذلك ونحن بدورنا لا نفرح كثيراً لهذه الأحكام العامة وامثالها، لأنها لم تكن صادرة من اصحابها عن فحص دقيق ومقارنات فنية، وانما تخطر لهم الخاطرة لمجرد استحسانهم لبيت أو بيتين فيرسلون لها مثل هذه الأحكام.

ولو عن لك أن تقرأ مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج، لعرفت كيف تبتذل فيه الألقاب لاقل المناسبات كما تبتذل في هذا العصر! ولكن بعضها الآخر قد يكون أقرب إلى الفن لاشتماله على شيء من وجهات النظر. وهي

بعد مختلفة باختلاف مقاييس الاستحسان في أنظار أصحابها، فبعضها تجعل المقياس في الجودة مدى خضوع الشاعر للمنهج الخلقي في نظمه ومدى ما يدور في شعره من المعاني الشريفة أو غيرها وقد ينزل على هذا ما يبدو من فهمه لتقريض الإمام الصادق له كما تدل على ذلك أبياته التي يقول فيها:

ولقد عجبت لقائل لي مرة ... عِلامة فهم من الفقهاء
سماك قومك سيداً صدقوا به ... أنت الموفق سيد الشعراء
ما أنت حين تخص آل محمد ... بالمدح منك وشاعر بسواء
مدح الملوك ذوو الغنى لعطائهم ... والمدح منك لهم بغير عطاء

فوجهة تفضيله ـ كما ترون ـ قائمة على أساس تخصيصه لآل محمد بالمديح بغير عطاء، بينما لا يمدح الشعراء الملوك إلا لذلك. وعلى عكسه مع وحدة المقياس ربما ينزل رأي الأصمعي الذي كان يتأخر به عن الدرجة اللائقة به في عقيدته لاشتمال شعره على سب الصحابة. ففي حديث التوزي أنه قال: قبحه الله ما اسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ولولا ما في شعره، ما قدمت عليه أحداً من طبقته.

فهو كما ترون إنما يقدم عليه غيره لما في شعره مما لا يتفق معه فيه. ونظيره في ذلك ما جاء في حديث الزبير بن بكار قال: سمعت عمي يقول: لو أن قصيدة السيد التي يقول فيها:

إن يوم التطهير يوم عظيم ... خص بالفضل فيه أهل الكساء

قُرئت على منبر ما كان فيها بأس ولو أن شعره كله كان مثله لرويناه وما عبناه. فهو إنما يعيبه لأنه لا ينظم شعره كله على هذه الوتيرة من المديح وعدم التعرض للغير.

وهناك آخرون يجعلون المقياس في الجودة هو المقياس الفني مع

اغفالهم لما ينظم فيه. وهؤلاء يختلفون في حدود احكامهم مع اختلافهم في التعليل وعدمه. فالجاحظ يجعله من الشعراء المطبوعين، ويوافقه صاحب الأغاني في ذلك ويزيد: أنه صاحب مذهب في الشعر قلما يلحق فيه أو يقاربه. ولكنه لا يحدد ذلك المذهب ولا يبين جملة خصائصه.

والشاعر العتبي قد يرى فيه ذلك ويشير إلى مذهبه بشيء من التحديد. قال اسحق: وسمعت العتبي يقول: ليس في عصرنا هذا أحسن مذهباً في شعره ولا انقى الفاظاً من السيد. ولالتماس البرهان على ذلك طلب لأحد الحاضرين أن ينشده لامية السيد التي كان قد أنشدها إياه في ذلك اليوم فينشده:

هل عند من أحببت تنويل | أم لا فإن اللوم تضليل

ثم يسترسل فيها إلى آخرها. قال اسحق: ثم قال: هذا والله الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب.

وهذا المقدار من التحديد لا يكفي للحكم العام على شعره من الوجهة الفنية، وقد يكون أقرب من هؤلاء جميعاً إلى فن النقد ما حدث به الحسين ابن الضحاك قال: ذاكرني مروان بن أبي حفصة أمر السيد بعد موته وأنا احفظ الناس بشعر بشار والسيد، فأنشدته قصيدته المذهبية التي أولها:

أين التطرب بالولاء وبالهوى | أإلى الكواذب من بروق الخلب
أإلى أمية أم إلى شيع التي | جاءت على الجمل الخدب الشوقب

(حتى أتى على آخرها) فقال مروان: ما سمعت قط شعراً أكثر معاني وألخص منه وعدد ما فيه من الفصاحة، وكان يقول لكل بيت منها: سبحان الله ما أعجب هذا الكلام.

فحكمه كما ترون لم يتجاوز هذه القصيدة إلى غيرها وزائده في حكمه

العام عليها أنها جمعت بين حسنيين، وجازة في التعبير ووفرة في المادة ثم خص كل بيت فيها بالتعليق، وكم كان من المهم لو استطرد الحسين إلى ذكر تعليقاته على الأبيات التي عدد ما فيها من الفصاحة، إذن لعرفنا وجهة نظر هذا الأديب الكبير تفصيلاً.

ونظيره في قيمته الفنية ما حدث به الحسين بن ثابت قال: قدم علينا رجل بدوي وكان أروى الناس لجرير، فكان ينشدني الشيء من شعره فانشده في معناه للسيد حتى أكثرت فقال لي: ويحك من هذا؟ هذا والله اشعر من صاحبنا.

وهو حكم لم يصدر من صاحبه إلا بعد مقارنات كثيرة، ولكن جهلنا بحال هذا البدوي وحدود فهمه لأساليب الشعراء يجعلنا لا نحفل بحكمه كثيراً. وليس بين أيدينا من الشعر ما يساعدنا على المقارنة بينه وبين جرير. وحسبنا أن نستفيد من هذه الرواية ـ إذا صحت ـ أن السيد كان لا يقل عن جرير تنوعاً في مواضيعه الشعرية وهو ما نرجو أن نلمس تباشيره في ما يأتي من فصول.

أما نظرته الذاتية لشعره فهي لا تقل عن نظرة هؤلاء النقاد، فهو في نظر نفسه أشعر الشعراء إلا العبدي، وهي نظرة لا نستكثرها على شاعر كان يعيش في تلكم العصور التي كانت تعجّ بالدوافع للاعتداد بالذات.

وقد حدد لنا طريقته في العرض في جوابه عن سؤال وجه إليه جاء فيه: ألا تستعمل في شعرك ما يستعمله الشعراء من الغريب، قال: ذاك عي وتكلف مني لو فعلته، وقد رزقني الله طبعاً واتساعاً في الكلام، فأنا أقول ما يفهمه الصغير والكبير ولا يحتاج إلى تفسير.

فهو ـ في هذا الجواب ـ يصرح بأنه يؤثر السهولة ليفهم كلامه الصغير والكبير وله من طبعه واتساع طرق الكلام عليه ما يمده بالطاقة الكافية لذلك.

أما بعد فهذه جملة من آراء النقاد فيه قديماً ولها من أقوالهم نظائر كثيرة، وهي وإن لم تلق ضوءاً كافياً على تحديد خصائصه الفنية كما نرغب أن تكون، ولكنها تفيدنا شيئاً واحداً هو أن هؤلاء الاعلام جميعاً كانوا يرونه في الطبقة الأولى من الشعراء، إن لم يكن أشعرهم جميعاً. ومن البعيد أن يخطأ هؤلاء على اختلاف ما لهم من الأذواق. وإذا كان فيهم من يهبط به عن مستواه لناحية خلقية مع اعترافه بالناحية الفنية، فليس ذلك لدينا بمهم ما دمنا لا نخضع في مقاييس النقد لغير الفن.

أما النقاد المحدثون فليس لدينا من مهمات دراستهم غير ثلاثة. أولاها للدكتور طه حسين في حديث الأربعاء، والثانية للعلامة العاملي في أعيان الشيعة، والثالثة للعلامة الأميني في كتاب الغدير. وليس في هذه الثلاثة ما يضيف إلى آراء النقاد القدامى شيئاً ذا بال مع اتفاقها على إكباره فلنتحول عنها إلى ما يقوله كاتب هذه الرسالة.

ـ ٣ ـ

يقول: بين يدي الآن وأنا احاول كتابة هذا الفصل اضمامة من شعره ترتفع في عدها إلى أكثر من ألف بيت، وهي لا تكاد تتفق في اسلوبها على حال كما أن مستواها الشعري مختلف أشد الاختلاف فبعضه يرتفع بصاحبه إلى القمه وبعضه الآخر يهبط به إلى الحضيض ووسط بين هذا وذاك.

وليس من السهل أن نؤمن بأن هذا الخليط العجيب كان قد صدر عن صاحبه بجميع أنواعه، مع أن بعضه قد لا نستطيع أن نرتفع به إلى ذلك العصر وننسبه إلى صغار الشعراء فيه، فرضاً عن نسبته إلى مثل السيد ممن نشأ في أهم الحواضر الثقافية إذ ذاك وتلمذ على كبار الأدباء في عصره، حتى صح لكثير من نقادهم كما رأيتم أن يفضلوه على طبقته من المحدثين أو مطلق الشعراء، وحتى صح أن ينسب لبشار وهو الشاعر السليط اللسان أن يتهيب مقامه، قال ابن عائشة: وقف السيد على بشار وهو ينشد الشعر فاقبل عليه وقال:

أيها المادح العباد ليعطى ... إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم ... وارج نفع المنزل العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه ... وتسمي البخيل باسم الجواد

قال بشار: مَن هذا: فعرفه فقال: لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا ولو شاركنا في مذهبنا لتعبنا. ومع هذا فكيف نستطيع أن ننسب إليه بعض ما سجلوه له من أشعار، اقرأ يا سيدي إن شئت ما صح لدينا من شعره الذي سجلناه فيما سبق أو سنسجله فيما يأتي، ثم اقرأ هذه الأبيات:

سمـــــــاه جبـــــار السمـــــا　　صـــــراط حـــــق فسمـــــا
فقـــال فـــي الـــذكـــر ومـــا　　كـــان حـــديثـــاً يفتـــرى
هـــذا صـــراطـــي فـــاتبعـــوا　　وعنهـــــم لا تخـــــدعـــــوا
فخـــالفـــوا مـــا سمعـــوا　　والخلـــف ممـــن شـــرعـــا
واجتمعـــــوا واتفقـــــوا　　وعـــاهـــدوا ثـــم التقـــوا
إذ مـــات عنهـــم وبقـــوا　　ان يهـــدمـــوا مـــا قـــد بنـــى
بـــه البســـاط إذ ســـرى　　وفتيـــة الكهـــف دعـــا
فمـــا اجـــابـــوا فـــي النـــدى　　ســـوى الـــوصـــي المـــرتضـــى

أو هذه الأبيات:

يـــا آل يـــاسيـــن يـــا ثقـــاتـــي　　أنتـــم مـــوالـــي فـــي حيـــاتـــي
وعـــادتـــي أن دنـــت وفـــاتـــي　　بكـــم لـــدى محشـــري نجـــاتـــي
إذ يفصـــل الحـــاكـــم القضـــاء
أبـــرأ إليكـــم مـــن الأعـــادي　　مـــن آل حـــرب ومـــن زيـــاد
وآل مـــروان ذي العتـــاد　　وأول النـــاس فـــي العنـــاد
مجـــاهـــر أظهـــر البـــراء

وقارن بينها وبين ما قرأت وأنا أعوذ بذوقك وبحاستك الفنية أن تُلجئَني إلى بيان ما منيت به من ركاكة وخطل في البيان وخلل في التراكيب، مما لا يمكن أن تنتسب إلى ذلك العصر إلا إذا صح أن تسبق هذه الأساليب عصورها المظلمة بآماد طوال.

أما من أين جاءته هذه ـ وأمثالها في المنسوب إليه كثير ـ فالذي أعتقده أنها من جنايات الشهرة عليه، وكم للشهرة على أصحابها من جنايات. فالسيد كما نعلم كان علماً على الولاء لأهل البيت ومناوءة خصومهم

السياسيين. وكان مشهوراً بالإكثار من نظم فضائلهم حتى نسبت إليه في ذلك كثير من المبالغات، وعرف أيضاً بضياع أكثر شعره.

فمن القريب جداً أن يجد بعض المعنيين بتسجيل كرامات أهل البيت بعض الأبيات المتضمنة لذلك ولا يجد قائلها، فيجتهد في نسبتها إلى صاحبها وقد يكون السيد أول من يحضر في الذهن لاشتهاره بذلك فينسبها إليه، أو يقول القائل غير المتورع أبياتاً في ذلك ويود لها الانتشار فينسبها إلى من يتنافس على شعره المتنافسون.

وهكذا تشوّه الحقائق في التأريخ، ومن هنا نجد الكثير من الشعر مرسلاً في النسبة إليه لا يعتمد في روايته على سلسلة الرواة كما نجده في أكثر ما يصح عنه.

فطريقنا إذن إلى تمحيص ما نريد بحثه في هذه الفصول أن لا نعمد أولاً إلى غير ما يمكننا الاطمئنان إليه لوثاقة في رواته ولعدم ما يمنع من نسبته إليه، ثم نعمد إليها ثانياً فنلتمس منها خصائصها العامة لنجعلها مقياساً نلجأ إليه فيما نشك به من شعره المرسل وغيره، فما كان حاملاً لها أخذنا به وإلا ألقيناه عن عواتقنا ولم نتحمل مسؤولية إلقائه عليه.

- ٤ -

وهذا الشعر الذي نكاد نطمأن إليه يختلف حاله في الجودة والضعف باختلاف ما يطرقه من مواضيع، وباختلاف مزاجه في ساعات الإلهام، وباختلاف عنايته فيما ينظم ومع ذلك كله فهناك أسلوب واحد يكاد ينتظم أكثر ما له من شعر، وهو حافل باليسر والسهولة والأصالة وسلامة التراكيب من التعقيد مع خلوه من وحشي الكلام، وقد لا يخلو من موسيقى عذبة في كثير من قصائده، وفي بعضها لفتات فنية قد لا يهتدي إليها إلا الأفذاذ من الشعراء.

فهو يسلمك ـ الفكرة أو الاحساس الشعوري أو الانفعال العاطفي أو الوقعة الخارجية التي يحاول ايصالها إليك ـ من دون التواء أو تكلف أو إجمال وإذا أجمل في بعضها فانما يجمل لنكتة شعرية جميلة. وكثيراً ما يستعين على تقريب الصورة إليك بالتشبيهات المحسوسة البديعة، وألفاظه في الغالب منتقاة انتقاء يتناسب مع الفكرة التي يريد أداءها من حيث الفخامة والمتانة أو الرقة والسهولة وإذا كان في شعره ما يؤاخذ عليه فشيء من الخروج على بعض قواعد النحو والصرف، كأن تجد عنده مثلاً:

أيـــرحـــى علـــي إمـــام الهـــدى وعثمـــان مـــا اعنـــد (المـــرجيـــان)

والصحيح (مرجين) إلا أن يكون ممن يقولون ببناء المثنى كما جاء في بعض اللغات الشاذة أو يقول:

فـــأجـــابـــوه والعيـــون سكـــوب وحشـــاهـــم قـــد شـــب منهـــا (لهيبـــا)

والقاعدة تقتضي الرفع على الفاعلية.

أو يقول:

ولا والله مـــا المهـــدي إلا　　　(امـــــــــــامـــــــــــا)

والصحيح الرفع على الخبرية لأن الاستثناء هنا مفرغ كما يقول النحويون.

أو يقول (كما في أغاني الساسي):

لا (يشكـــروا) لمحمـــد أنعـــامـــه　　　افيشكـــرون لغيـــره إن أنعمـــا

ولا النافية لا تحذف النون فيما نعلم.

ولذلك بعض الاشباه وهي قليلة لا تستحق أن يطال فيها الكلام، وربما يعزا بعضها إلى تحريف النساخ وكثيراً ما نجد عنده فكاً للادغام في الحرفين المتماثلين مما لا يسوغه الصرفيون.

وشيء آخر لا نستعذب بعضه ـ وان جاء في كثير من شعره ـ وهو عدم استقلال بعض أبياته بإفادة ما يريد معناه، فهو يأتيك مثلاً بالمبتدأ ببيت وخبره في البيت الثاني أو الفعل وفاعله أو متعلقه في بيت آخر بحيث لا يكمل مراده قبل الاتيان به، وهذا لا يستعذب في الغالب كأن تقرأ مثلاً في شعره:

تتـــم صـــلاتـــي بـــالصـــلاة عليهـــم　　　وليســـت صـــلاتـــي بعـــد أن أتشهـــدا
(بكـــاملـــة) إن لـــم أصـــل عليهـــم　　　وأدعـــو لهـــم ربـــاً كـــريمـــاً ممجـــدا

أو يقول:

إنّـــا نـــديـــن بحـــب آل محمـــد　　　دينـــاً ومـــن يحببهـــم يستـــوجـــب
(منـــا المـــودة والـــولاء ومـــن يـــرد　　　. . . . .

أو يقول:

ألا يــا أميــن الله وابــن أمينــه أتــوب إلــى الــرحمــن ثــم تــؤبــي
(إليــك) مــن الــذنــب الــذي كنــت ....

وأمثالها كثير. وهناك من المؤاخذات ما يغضب أرباب المدرسة القديمة في البلاغة كالتطويل وامثاله مما سنعرض له في ثنايا ما نحلله له من شعر، هذا بالاضافة إلى ما نجده في بعضه من الابتذال والاسفاف. وقد يكون منشأ ذلك كله هو اكثاره من الشعر وارتجاله له في بعض المناسبات وعدم معاودته له بالصقل والتعديل وطروقه لفن جديد لم تستو شؤونه في اللغة العربية بعد، وهو فن نقل القضايا التاريخية وتصويرها، وإذا أردت أن تتسامح في الاصطلاح قلت فن القصة.

وهذه المؤاخذات وامثالها قلما يسلم منها شاعر في أي عصر كان. وعلى ذلك فلنبدأ بدراسة شعره في ضوء ما ظهر لنا من اسلوبه لنقف بأنفسنا مع القراء على مواطن القوة أو الضعف فيه.

وتيسيراً للبحث رأيت أن أستعير من كتاب فنون الأدب لـ(تشارلتن) تقسيمه للشعر حيث يقول: «إما أن تحكي القصيدة عن العالم الخارجي وإما أن تعبر عن العالم الداخلي عند الشاعر نفسه، فأما النوع الأول فنسميه شعراً قصصياً وأما الآخر فهو الشعر الغنائي». فنوزع في ضوئه ما بأيدينا من شعره إلى هذين النوعين ونخص كلاً منهما بحديث.

ـ ٥ ـ

وقبل أن نبحث شعره القصصي يهمنا أن ننبه إلى أننا سوف لا نحمل هذا النوع من شعره كل ما بأيدينا من اعتبارات ربما يراها النقاد المحدثون عناصر مقومة للقصة الفنية، فهذا ظلم له وتجاهل للفوارق الزمنية بيننا وبينه، مع أن الرجل لم يرد لنفسه ـ فيما طرقه في هذا الباب ـ أكثر من تصوير وقائع خارجية وقعت في صدر الاسلام، ورأى فيها ما يلائم عواطفه العقيدية فصال بها في مجال التبشير وجال.

ولم يقصد بها في الغالب للناحية الفنية قصداً وإنما كان يرد منها ما يرد اليه من محض طبيعته التي كونها له مرانه الفكري ووعيه لاكثر ما يمر به من كلام البلغاء، في أمثال تلكم الحلقات التي تحدثنا عنها فيما سبق. على أنا لو اخضعناه إلى ما كان شائعاً من عناصرها إذ ذاك لكان مجلياً في هذه الناحية كما يبدو لدى المقارنة الدقيقة مع سواه. ولولا تجاوزنا للصحفات المخصصة لنا في هذه السلسلة لعرضنا لها بشيء من الحديث.

وهذا النوع من شعره يكاد يأخذ من مجموعه الذي تملكه أكثر من ثلثيه وفي بعضه وثبات شعرية لا تتفق إلا للقليل من الشعراء.

يسمع السيد بعض أرباب الحديث وهو يحدث جماعته أن النبي ﷺ كان ساجداً فركب الحسن والحسين على ظهره، فقال عمر: نعم المطي مطيكما، فقال النبي: ونعم الراكبان هما، فيسارع إلى نظمها فيقول:

أتى حسن والحسين النبي	وقد جلسا حجزة يلعبان
ففداهما ثم حياهما	وكانا لديه بذاك المكان

فـــراحـــا وتحتهمـــا عـــاتقـــاه فنعـــم المطيـــة والـــراكبـــان

وهي أبيات جميلة واتاها الطبع فأمدها بأصالة مع وجازة في العرض. فلو شئت أن تضع جملة مكان جملة لما جئت بأوجز منها ولا أجمل. ولو شئت أن تستغني عن بعضها لما تمكنت.

تأمل: (وكانا لديه بذاك المكان) وهي فيما يبدو زائدة على أصل الصورة، ولكن وجودها فيها لدى التأمل ضرورة من الضرورات، وإلا فبم تفسر اهتمامه ﷺ بهما حتى يصح له أن يفديهما ويحييهما إذ لم يكونا لديه بذاك المكان. ثم تأمل وجازة: (فراحا وتحتهما عاتقاه) وابحث عن أجمل منها وأكثر وجازة فلن تجده، وبخاصة إذا اعقبتهما بشطره الأخير: (فنعم المطية والراكبان). وهو خلاصة جميلة لحوار النبي وعمر كما مر في الحديث.

وهذه بائيته الشهيرة بالمذهبة بين المؤرخين التي كان لها الحظوة لدى الكثير من النقاد كما رأينا بعض ذلك سابقاً في حديث مروان بن أبي حفصة والحسين بن الضحاك. وقد وجد فيها الشريف المرتضى صاحب الأمالي تحفة فنية فخصها بمؤلف من مؤلفاته وشرحها ونبه على بعض ما فيها من عناصر الفن. واقتفى العلامة العاملي أثره فخصها بكثير من التعليقات بعد أن وصلها بشاعرها من أصح الطرق لديه.

هذه البائية الشهيرة التي تجاوزت في عدها مئة بيت كانت مسرحاً لعرض عدة من الصور التأريخية، نقلها بأمانة ولونها بريشته تلويناً يملك في بعضه العواطف، وقد خرج فيها على طريقته التي بيناها في تجنب الغريب من الألفاظ أو غير المتداول منها على الأقل. ولعله قصد بذلك أن يثبت للنقاد وفرة مادته اللغوية واطلاعه على كثير من الألفاظ الغريبة التي كان يتنافس عليها بعض الأدباء إذ ذاك.

ولست أبعد أن هذه القصيدة كانت موضع عنايته وأنه عاودها بالرتوش المصلحة قبل أن يسلمها إلى رواته، فهي على كثرة أبياتها تكاد تخلو من قافية نابية أو كلمة لا يرضى عنها المعنيون بهذه الشؤون. ففيها تبدو أصالة أسلوبه أكثر من غيرها على تطرقها للمواضيع القصصية التي ربما تقهر الشاعر على الاسفاف في سبيل أن تؤدي بأمانة تامة. وقد كنت أحب أن أخصها بدراسة وافية لولا ضيق المجال، وربما عاودتها إن قدر لهذا الكتاب أن يعاد طبعه ويخرج بغير هذا الحجم.

وهي بعد ذلك على سبيل الاجمال لوحة عرضت بعد مقدمتها التقليدية إلى عدة صور تأريخية أطنبت في تصويرها وهي:

١ ـ حادثة الجمل الشهيرة.

٢ ـ حادثة جرت للإمام في طريقه إلى حرب صفين.

٣ ـ حادثة هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومبيت الإمام عليه السلام على فراشه.

٤ ـ حادثة خيبر وموقف الإمام عليه السلام فيها.

وخلّل هذه الصور بعض المناقب والفضائل للإمام وجعلها أشبه بالرابطة التي تربط هذه السلسلة من الحوادث بعضها ببعض. وها نحن أولاء نعرض من هذه الصور الصورة الرابعة (حادثة خيبر) كنموذج لما جاء في هذه القصيدة.

وخلاصة الحادثة من التأريخ أن اليهود لما اعتصموا بحصون خيبر أرسل لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلّة من جيوش المهاجرين والانصار وعلى رأسهم بعض العدويين. ولكن قائدهم لم يطق الثبات لجيش اليهود فعاد بالراية إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأثر عنه أنه قال: سأعطي الراية غداً إلى رجل كرار غير فرار

يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ثم اعطاها إلى الإمام علي عليه السلام وفتح الله على يديه بعد أن قتل كبيرهم مرحباً.

ففي هذه القصة كما ترونها فصول عديدة ولها عدة أبطال يبدأ أولى الفصول بهزيمة قائد المسلمين العدوي، وتكليف النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإمام عليه السلام بأخذ الراية منه، وبطلا هذا الفصل هما القائد المهزوم والإمام، فلنسمع كيف يصور ذلك:

ولـــه بخيبـــر إذ دعـــاه لـــرايـــة	ردت عليـــه هنـــاك أكـــرم منقـــب
إذ جــاء حــاملهــا فــاقبــل متعبــاً	يهــوي بهــا العــدوي أو كــالمتعــب
يهـــوي وفتـــى اليهـــود يشلـــه	كــالثــور ولــي مــن لــواحــق اكلــب
غضــب النبـــي لهــا فــانبــه بهــا	ودعـــا اخـــا ثقـــة لكهـــل منجـــب
رجــلاً كــلا طــرفيــه مــن ســام ومــا	حـــام لـــه بـــأب ولا بـــأبـــي أب
مـــن لا يفـــر ولا يـــرى فـــي نجـــدة	إلا وصـــارمـــه خضيـــب المضـــرب

فالبطل الأول في هذا الفصل هو هذا العدوي الذي يمت إلى الحاميين بنسب كما يبدو من تعريضه به في وصف البطل الثاني الذي نسبه إلى كهل منجب، واضاف إلى ذلك أن أبويه كانا ساميين بل كان عريقاً في السامية تأملوا هذا البيت فهو من روائع الشعر:

رجــلاً كــلا طــرفيــه مــن ســام ومــا	حـــام لـــه بـــأب ولا بـــأبـــي أب

واروع منه ما فيه من تعرض خفي للبطل الأول كما يبدو للنابهين من قراء الشعر، وكأن السيد كان ممن يؤمن بما للجنس السامي من تفوق على غيره ومن حمله لخصائص لا توجد في ذلك الغير كالشجاعة مثلاً. فهذا البطل الذي انجب به أبواه الساميان على جانب عظيم من الشجاعة، فهو لا يفر بل لا يرى في النجدات إلا وسيفه خضيب المضرب.

تأملوا كلمة (في نجدة) ففيها رمز إلى أن هذا البطل كان لا يجرأ أحد على غزوه، وكل ما يخوضه من الحروب كان من قبيل النجدات للغير. وصورة الواقعة بعد ذلك كما تدل عليها الأبيات:

إن البطل الأول وهو قائد المسلمين هزم في حرب اليهود وجاء برايتهم متعباً يهوي بها وكالمتعب ووراءه فتى اليهود يشله، وهنا يعمد إلى التشبيه لتقريب صورة الهزيمة. فهل اتفق لك أن رأيت الثور هارباً من كلاب تعدو خلفه لتفتك به؟ هكذا كان قائدنا في الهزيمة. وهذا المنظر بالطبع، مما يغضب النبي فيضطره إلى تأنيبه وأخذ الراية منه وتسليمها إلى البطل الثاني، وقد ردت عليه هذه الدعوة من النبي ﷺ (أعظم منقب).

وهنا يبدأ الفصل الثاني.

وفيه صورة للقائد الجديد وبيده راية المسلمين مع وصف شيء من نوازعه النفسية ووصف للجيش الذي تولى قيادته وقد سار به قائده إلى الكفاح اسمعه:

فمشى بها قبل اليهود مصمماً	يرجو الشهادة لا كمشي الأنكب
تهتز في يمني يدي متعرض	للموت اروع في الكريهة محرب
في فيلق فيها السوابق والقنا	والبيض تلمع كالحريق الملهب
والمشرفية في الاكف كأنها	لمع البروق بعارض متحلب
وذوو البصائر فوق كل مقلص	نهد المرا كل ذي سبيب سلهب

فهل رأيت منظراً أروع من هذا المنظر؟ قائد تهتز الراية بيده وهو مصمم على الموت رجاء الشهادة لا كما يمشي إليها المنحرف من الرجال.

تأملوا قوله (مصمماً يرجو الشهادة) ففيها أعمق تصوير للثبات. وكيف ترجو له الهزيمة ما دام قد أقدم وهو مصمم على الموت؟

ويأتي البيت الثاني فيؤكد هذه الحقيقة، فهو (أروع في الكريهة) حسن البلاء في الحرب لا يبالي أن يعرض بنفسه إلى الموت ومعه هذه الفيلق من ذوي البصائر، وهو مدجج بالسلاح من دروع وهي إلى رماح إلى سيوف تلمع كالحريق الملهب أو كأنها لمع البروق في السحاب الماطر.

تعجبني كلمة (المتحلب) في البيت فهي من القوافي المركزة في هذه القصيدة وهم على خيول نجائب، وصفها فأبدع بوصفها بهذا البيت:

وذوو البصائر فوق كل مقلص نهد المراكل ذي سبيب سلهب

ويأتي الفصل الثالث:

فيلتقي القائد بطليعة جيش اليهود فيرمونهم بالسهام، وتشد الطليعة على القائد ويحاولون أن يصيبوا فرسه، فيشد عليهم ويردهم على الأدبار، ثم يلتحق بهم قائد اليهود الأعلى ومعه الجيش وتقع الواقعة فيصرع قائد اليهود، انظروا كيف صور هذا الفصل فابدع.

حتى إذا دنت الأسنة منهم ورموا فنالهم سهام المقنب
شدوا عليه ليرجلوه فردهم عنه باسمر مستقيم الثعلب
ومضى فاقبل مرحب متذمراً بالسيف يخطر كالهزبر المغضب
فتخالسا مهج النفوس فاقلعا عن جري احمر سائل من مرحب
فهوى بمختلف القنا متجدلا ودم الجبين بخده المتترب
اجلى فوارسه واجلى رجله عن مقعص بدمائه متخضب
فكأن زوره العواكف حوله من بين خامعة ونسر اهدب
شعث لعامظة دعوا لوليمة أو ياسرون تخالسوا في منهب

أرأيت كيف يلتقي هذا الفيلق بمقنب اليهود، والمقنب الجماعة القليلة من الخيل، وكيف يغيرون على القائد ليرجلوه، فإذا بصاحبهم هذا

ليس سهل التناول كما يظن حيث ردهم برمحه المستقيم الطرف ومضى إلى حصونهم غير مكترث، مما أثار غضبة قائدهم الأعلى الذي ادخروه للملمات فاقبل للنزال بنفسه متذمراً وهو يخطر كما يخطر الاسد المغضب، تأملوا قوله:

ومضـى فـاقبـل مـرحـب متـذمـراً بـالسيـف يخطـر كـالهـزبـر المغضـب

ففيه من روعة الوصف ودقته ما يطرب أرباب البيان. ولكنه أقبل على قرين له لا ينال بايسر الأسباب. تأملوا هذا المنظر بطلان من أعظم الأبطال واشجعهم يقفان في الميدان وكل منهما يكيد للآخر ليختلس منه مهجته. تأملوا عبارة فتخالسا فهي عبارة موحية لاجمل ما يصور هذا الموقف الدقيق، وتنجلي النتيجة عن قتل أحد البطلين حيث هوى مرحب متجدلاً بدمائه، واجتمع عليه جيشه بفوارسه ورجله ولكن الإمام عاد إليهم فـ:

أجلـى فـوارسـه واجلـى رجلـه عـن مقعـص بـدمـائـه متخضـب

ولم يبق عليه إلا ما يزوره ويعكف حوله من الضباع التي تتخمع في مشيها والنسور الكثيرة الاهداب. وقد اشبهت باجتماعها عليه وتناهبها للحمه هؤلاء الجشعين النهمين من الفقراء الشعث الذين تجمعوا حول وليمة دعوا إليها فشرعوا يتناهبون ما عليها من طعام. أو جماعة من المقامرين يتخالسون القداح في منهب جديد.

وفي ختام هذا الفصل يصف نهاية هذه الفلول المنهزمة من جيشهم بعد قتل القائد فيقول:

ومـوائليـن إلـى ازل ممنـع راسـي القـواعـد مشمخـر حـوشـب
رد الخيـول عليهـم فتحصنـوا مـن بعـد أرعـن جحفـل متحـزب
ان الضبـاع متـى تحـس بنبـأة مـن صـوت أشـوس تقشعـر وتهـرب

والموائل بمعنى اللاجئ. والازل الممنع هو الحصن الذي لا ترتفع فيه الاقدام لتعرضها للزلل وقد ارست قواعده واستطال وضخم جانباه. وهكذا انتهى الأمر فكان اللاجئون إلى حصنهم هم اليهود فليسمعها اخواننا العرب اليوم الذين حار أمرهم بلاجىء العرب من اليهود، الله أكبر هكذا يفعل فقدان العقيدة في النفوس فيميتها بعد أن كانت في عداد الخالدين ويقلب الآية عليها فيصبحون هم اللاجئين بعد أن كان لا يحمى من بأسهم ما يصنعه اليهود من الحصون.

لا يا سادتي عودوا إلى عقيدتكم فاليهود هم اليهود والمسلمون هم المسلمون، وهم اقصر باعاً من أن يصلوا إليكم أو يمنعوا أنفسهم منكم حتى ولو كانوا في أمنع الحصون، اسمعوا هذا البيت فهو من خوالد الابيات في هذا الموضوع:

ان الضبـــاع متـــى تحـــس بنبـــأة　　　مـن صـوت اشـوس تقشعـر وتهـرب

فأين اصواتكم يا اشاوس العرب تجاه هذه الضباع **﴿قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم﴾** وحاشا لله أن يكذبكم وعده.

أيها القارئ الكريم:

اغتفر لي هذا الاستطراد، ففي النفس شجون من قضايانا تجاه اليهود لا يملك القلم معها لنفسه العنان فلنعد إلى ما نقوله في هذه القصيدة.

اعتقد أن القارئ يشار كني في الاعجاب بهذه الأبيات، ويعجب معي بتسلسل الفكرة وانتظامها وحسن تصويرها ومتانتها مع ملاءمة تامة بين الفاظها ومعانيها، فهذه الالفاظ الغريبة علينا على كثرتها في القصيدة لم تزد أبياتها إلا جمالاً على جمال.

وقد يكون انتقاؤنا للفصول الحسنة من شعره القصصي والاقتصار عليها، محاباةً للشاعر لا نحبها لأنفسنا ولا يحبها لنا القراء. وربما كان السيد نفسه لا يحبها لنفسه فهو لا ينتظر منا إلا الكشف عن شخصيته الشاعرة بما فيها من مزايا وعيوب، وإلا نكون قد كشفنا جانباً واخفينا جانباً وهو خلاف الواقعية التي كان يدعو إليها بسيرته كما رأيناه ولم يحاب بها حتى كبار الصحابة والسابقين.

فلنواجهه ببعض عيوبه فنقرأ قصيدته الحبابية التي مر لها ذكر في هذا الكتاب.

ألا يـــا قـــوم للعجـــب العجـــاب	لخـــف أبـــي الحسيـــن وللحبـــاب
اتـــي خفـــاً لـــه فـــانســـاب فيـــه	لينهـــش رجلـــه منـــه بنـــاب
فخـــر مـــن السمـــاء لـــه عقـــاب	مـــن العقبـــان أو شبـــه العقـــاب
فطـــار بـــه فحلـــق ثـــم اهـــوى	بـــه لـــلارض مـــن دون السحـــاب
إلـــى جحـــر لـــه فـــانســـاب فيـــه	بعيـــد القعـــر لـــم يـــرتـــج ببـــاب
كـــريـــه الـــوجـــه أســـود ذو بصيـــص	حـــديـــد النـــاب أزرق ذو لعـــاب
ودوفـــع عـــن أبـــي حســـن علـــي	نقيـــع سمـــامـــه بعـــد انسيـــاب

والقصيدة من الوجهة العامة ضعيفة لا تخلو جل أبياتها من اسفاف وتكلف، ويبدو بشكل خاص في قوافيها التي تحكمت بالابيات تحكماً ملحوظاً فاضافت إلى ضعفها ضعفاً. وفي عقيدتي أنه لم ينظم (لينهش رجله منه بناب) لولا القافية، على أن القافية لم تستطع أن تتركز في بيتها مع ذلك ووجودها فيما يراه أرباب المدرسة البيانية من التطويل غير المفيد، وإلا فبم يحتمل أن ينهش الثعبان إذ لم ينهش بنابه حتى يرفع الشبهة عن السامعين بذلك.

وهذا الترديد في قوله (من العقبان أو شبه العقاب) لم يلتجئ إليه لولا القافية مع أن الرواية لم يرد فيها ترديد، وليس فيه هنا أية نكتة بلاغية تحتمل أنها هي التي دفعته إلى ذلك.

وهذا التحديد في البيت الرابع (من دون السحاب) أية فائدة فيه حتى يذكره لو لا ضرورة القافية.

وقوله:

إلى حجر له فانساب فيه ... بعيد القعر لم يرتج بباب

ما أدري هل كان يهمنا أن نعلم منه أن قعر جحره كان بعيداً أو قريباً حتى يتفضل ببيانه، وهل هو دخيل في أداء أصل الفكرة أو ملابساتها؟ ثم قوله (لم يرتج بباب) ما معناه؟ أكنا نتخيل أنه دخل إلى حجر مرتج بالباب، أو أنه رفع رتاجه فدخل، أو كنا نحتمل أنه دخل حتى مع وجود الرتاج ليرفع عنا كل هذه التوهمات؟

الحق أني لم أستعذب أبياته هذه وإن كان له من ارتجاله لها عذر، على أن الارتجال لا يبرر لصاحبه أن يقول ما يقول.

ونحن نكتفي بهذا النموذج لتصوير ما لحقه من الضعف في بعض شعره القصصي لننتقل إلى بحث شعره الغنائي.

- ٦ -

وشعره الغنائي لم يكن كله على وتيرة واحدة أيضاً، فهو يختلف في الغالب باختلاف منابعه فبعضه يصدر فيه عن منبع عقلي فحسب، فيضطره ذلك إلى طغيان الصبغة العلمية على أسلوبه وربما أفقده الطبعية في بعض لوحاته الفنية. وعلى هذا القسم ينزل كثير من شعره الجدلي العلمي الذي كان يستخدمه في مجال المخاصمات العقيدية، كقوله مثلا في الرد على من يفضل الصحابة على التابعين لأسبقيتهم إلى الإسلام، ولا يفضل الإمام على الجميع مع أنه اسبقهم إلى ذلك:

أقــول لأهــل العمــى الحــائــرينــا	مــن الســامــريين والنــاصبينــا
لعمــري لئــن كــان للســابقيــن	وسيلــة فضــل علــى التــابعينــا
لقــد كــان للســابــق الســابقيــن	عليهــم مــن الفضــل مــا تــدعــونــا

وهي أبيات لا تسمو بغير فكرتها العلمية، أما حظها من الصياغة الفنية فذلك شيء لا يكاد يتوفر فيها بحال، وقد سبق لها نظائر في موضعها من هذا الكتاب، ولعل اقربها إلى الفن ما كان منها موحياً للفكرة التي يريدها ايحاء لا تصريح فيه، كقوله في الاستدلال لعصمة الإمام من بائيته المذهبة:

جعــل الــولايــة بعــده لمهــذب	مــا كــان يجعلهــا لغيــر مهــذب

تأملوا قوله (ما كان يجعلها لغير مهذب) ففيه ايماءة خفية إلى استقلال العقل بهذا الأمر مع احتفاظه بأسمى ما يفرضه الفن في اختيار الالوان الرائقة في أمثال هذا المقام، وبعضه الآخر كان يصدر فيه عن منبع عاطفي وهو متشعب بتشعب العواطف الباعثة له على قول الشعر، وإن كانت التجارب التي تتخلله في الغالب لا تتعدى في مصدرها إحدى عاطفتين؛ عاطفة حب

بمعناه العام؛ وعاطفة بغض، ولكل منهما شأن خاص.

أما اولاهما، فتتمثل على الأغلب في هذه الأبواب من شعره:

المديح، الغزل، النسيب، الرثاء، الفخر.

وأول هذه الأبواب وأكثرها طروقاً بالنسبة لما بين أيدينا منه هو باب:

المديح

وهو مختلف باختلاف المصادر الخارجية لهذه العاطفة، وباختلاف البواعث النفسية على نظمها. وأكثر ما لدينا منه جاء في مديح أهل البيت. وربما كان أكثر ما قاله من شعر في ذلك، إذا صح ما قيل سابقاً من جمع بعضهم له ثلاثة آلاف قصيدة في هذا الموضوع، وقد كان نصيب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام منه أكثر من غيره، فقد خصه بكثير من قصائده الطوال. وقد مرّ الكثير منها في هذا الكتاب. وفي هذا النوع من شعره يتجلى اسلوبه الفني في اسمى مظاهره وبخاصة في يسره وأصالته. اقرأ مثلاً هذه اللوحة التي يشرح فيها أسرار ولائه لأهل البيت:

جعلت آل الرسول لي سببا ... أرجو نجاتي به من العطب
علام الحي على مودة من ... جعلتهم عدة لمنقلبي
لو لم أكن قائلاً بحبهم ... أشفقت من بغضهم على نسبي

وتأمل ما فيها من مواتاة للطبع وترسل وحسن بيان، ثم تأمل في خصوص هذا البيت:

لو لم أكن قائلاً بحبهم ... أشفقت من حبهم على نسبي

وانظر كيف أومى إلى الحديث المشهور بحديث الخيمة الذي يرويه الخليفة أبو بكر فيما يؤثر عنه، قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيم خيمة

وهو متكئ على قوس عربية، وفي الخيمة عليّ وفاطمة والحسن والحسين فقال: يا معشر المسلمين إني سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، وولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد، طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقي الجد ردئ الولادة»[1].

وكيف ابدع في هذه الإيماءة، تأملوا (أشفقت من بغضهم على نسبي) وانظروا موقع هذا الاشفاق المركز في رد اللاحين، وما فيه من تعريض خفي بهم ولِمَ لا يشفق؟ ورسول الله يقول: لا يبغضهم إلا ردئ الولادة.

أو اقرأوا إن شئتم ترسله في مديح الإمام من قصيدة طويلة كلها على هذا النمط:

علـي أميـر المـؤمنيـن وعـزهـم ... إذا الناس خافوا مهلكات العواقب
علـي هـو الحـامـي المـرجـى بفعلـه ... لـدى كـل يـوم بـاسـل الشـر عـاصـب
علـي هـو المهـدي والمقتـدى بـه ... إذا الناس حاروا في فنون المذاهب

وتأملوا انتقاءه لألفاظه وتركيزها وسلامتها وسلامة تراكيبها من التعقيدات الشائنة، ثم تأملوا هذه الاستعارة الرائعة في باسل الشر، فهي من الاستعارات النادرة التي لا تتأتى في الغالب إلا لمن يملك أعظم عدة من البيان، فهل اتفق لكم أن شاهدتم قبل هذا كيف يكون الشر باسلا؟ وقاكم الله شره، ورأيتم كيف يستغل هذه البسالة في سبيل ترويع القلوب هناك تدركون قيمة المحامي المرجى ولاسيما إذا كان ذلك المحامي هو الإمام.

وأمثال هذا الشعر في أهل البيت وفي الإمام كثير، وربما تجاوزهم إلى مديح بني هاشم أو مديح أئمته منهم أو مديح قسم من بني العباس، وليس لدينا بعد ذلك مديح ذو أهمية لاشخاص آخرين، وقد سبق لنا ذكر الكثير من

---

(١) نقلته عن عبقرية الإمام للعقاد ص١٦٢.

ذلك فلا نثقل بإعادته على القارئ الكريم، على أن الأمانة تقتضينا أن ننبه إلى أن ذلك الشعر ليس كله جيداً بل فيه الكثير من شعره الضعيف الذي تطغى عليه صبغة الارتجال في غير ساعات الالهام. وفي بعضه يفقد حرارة العاطفة كما نشاهد ذلك في شعره الذي لا يمتّ إلى عقيدته المذهبية ببعض الصلات.

ويأتي بعد مديحه في الأهمية فيما يصدر عن عاطفة الحب:

الغزل والنسيب

وهو فيما لدينا يتشعب إلى ثلاث شعب، تتحدث الأولى منها عن وقوفه على الاطلال والديار المقفرة بعد الاحباب. وهو في الغالب شعر تقليدي تطغى عليه الصبغة القديمة بالنسبة إلى زمانه، ويكاد يخلو من صدق العاطفة، وكل ما هنالك أنه كان وسيلة للبدء به في قصائده كما اعتاد أن يصنع الشعراء حتى ذلك العصر. ولعلكم تذكرون أننا قلنا فيما سبق أن لامرئ القيس مكاناً في نفسه وشعره في هذا الموضوع يدلك على حدود تأثره فيه.

اقرأ مثلاً لامرىء القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمغراة لم يعف رسمها ... .

ثم اقرأ للسيد:

هلا وقفت على المكان المعشب ... بين الطويلع فاللوى من كبكب

فتجاد توضح بالنضائد فالشظا ... فرياض سنحة فالنقا من جونب

طال الثواء على منازل اقفرت ... من بعد هند والرباب وزينب

وقارن بين تحديدهما الجغرافي وأسلوبهما في ذلك، ونحن لا نعتقد أن هذه المنازل كانت لهنده أو ربابه أو زينبه إن صح أنه كان ذا هند أو زينب أو رباب، وكل ما هنالك ان امرىء القيس مثلاً حدد امكنة محبوبته في منازل البادية فتأثره شاعرنا الكريم واطرف ما قرأت له في الوقوف أو الايقاف على الديار هذه الأبيات:

قف بالديار وحيها يا مربع ... وأسأل وكيف يجيب من لا يسمع

إن الديار خلت وليس بجوها ... إلا الضوابح والحمام الوقع

ولقد تكون بها لو أوانس كالدمى ... جمل وعزة والرباب وبروع

حور نواعم لا ترى في مثلها ... امثالهن من الصيانة اربع

فعرين بعد تألف وتجمع ... والدهر - صاح - مشتت ما تتجمع

وهي أبيات زاخرة بجزالة اسلوبه وحسن انتقائه لألفاظه وإن كانت خالية من العاطفة المشبوبة

والذي يظهر من بعض شعره - وإن كنا نبرؤه منه - أن صاحبنا كان من عشاق (الجملة) - إذا صح هذا التعبير - وإن شئت أن تقول إنه كان اشتراكي الهوى يوزع عواطفه هنا وهناك، ولا يستطيب مائدة دون مائدة فيقف عندها ولا يبرح عنها كما كان يصنع سابقوه من أمثال: كثير وجميل. وقد احصينا من حبيباته اللائي سمّاهن في شعره، أكثر من عشرة كهند ودعد وعبدة وجمل وعزة والرباب وبروع وزينب وأم عمرو وسلامة ونظائرهن، وقد وصفهن فأوفى على جملة ما لهن من صفات، ومن وصفه لهن نعرف:

ذوقه في جمال المرأة

وهو الذي يشكل الشعبة الثانية من غزله، فماذا يقول فيهن؟ حدثنا أيها السيد الذواقة:

طال الثواء على منازل اقفرت ... من بعد هند والرباب وزينب
أدم حللن بها وهن أو انس ... كالعين ترعى في مسالك أهضب
يضحكن من طرب بهن تبسما ... عن كل أبيض ذي غروب أشنب
حور مدامعها كأن ثغورها ... وهنا صوافي لؤلؤ لم تقثب
أنس حللن بها نواعم كالدمى ... من بين محصنة وبكر خرعب
لعساء واضحة الجبين أسيلة ... وعث المؤزر جثلة المتنقب
كنا وهن بنضرة وغضارة ... في خفض عيش راغد مستعذب

فهذه الفتيات الثلاث ـ كما ترون ـ قد توافرت فيهن صفات الجمال لديه فهن من ضبيات الانس، والضباء تمتاز بسعة العيون واحورارها وبخاصة ما يشبه منها بقر الوحش، وهن على اختلافهن في الاحصان والبكارة نواعم ذات شفاه لعس وخدود أسيلة ووجوه فيها سمنة وارداف فيها لين وثغور بيضاء ذات ريق بارد وجباه واضحة جميلة، وهذه الصفات هي الشائعة في جملة قصائده فيهن وفي غيرهن، وربما اضاف إليها في بعضهن امتلاء الذراعين والساقين ونهود الثديين وضمور الخصر وعظم الوركين وكبر الأرداف واكتناز اللحم وطول العنق . . . الخ.

وهذه الصفات التي ذكرها إذا اخضعناها لمقاييس الحسن في أذواق ذلك العصر، استحقت صواحبها أوسمة ملكات الجمال على سائر النساء، وإذا أخضعناها لمقاييسنا الحديثة اقتضتنا أن نلطف في بعضها ونحذف من بعضها الآخر، فهذه السمنة التي كررها في شعره لا ترضي هواة الجمال منا وربما التمسنا واهبها أن يخفف منها قليلاً، وهذه الأرداف التي تشبه الكثيب ربما يطلب أساتذة التجميل اليوم تخفيفها إلى حد ما، لأن (الموضة) الحديثة تأبى إلا أن تسوي بين قامتي الرجل والمرأة وإن أغضب ذلك علم وظائف الأعضاء كما يقولون.

وليس من الحق أن ننظر حبائبه بأعيننا اليوم، فهذا ظلم له وإغفال لمقتضيات البيئة والعصر اللذين كان لهما الأثر في تكوين ذوقه الخارجي.

وهن بعد ذلك المقياس كما قدمنا من أجمل الناس، ولكن أليس من حقنا أن نتساءل عن شاعرنا في تعداده لهذه الصفات، أكان ذا احساس فني يصحح نسبة هذه التجارب إليه أم كان صدى مدوياً لأصوات الكثير ممن سبقه من الشعراء الذين تطرقوا إلى تعدادها في جملة ما لهم من شعر؟

لا نستطيع أن نجزم بذلك قبل أن نعرف مقدار تأثير هذا الجمال عليه. فهو إذا كان من ذوي الاحساس الفني لا بد وأن ينفعل لمرآه ويستجيب له ولا بد وأن يؤثر ذلك في مجرى حياته فتطفح آياته على شعر ويبدو فيه:

صدق العاطفة

وهو ما يشكل الشعبة الثالثة من شعره فنلتمس ذلك فيه. ومما يجدر التنبيه عليه قبل أن نتحدث في هذا الموضوع، أن كثرة الاسماء في شعره لا تدل على كثرة في حبيباته كما يبدو ذلك لأول نظرة. فربما كانت هذه الاسماء لا تحكي في مخيلته إلا مسمى واحداً، وقد اتخذ من كثرتها دريئة يخفي بها ذلك المسمى عن أعين الرقباء، وكثيراً ما يفعل العشاق ذلك للتعمية أو للتخلص من تعريض نفسه وتعريضها لاقاويل المتقولين. على أن هذه الكثرة ربما تكون حقيقية ولكن لصويحباتها اللاتي يألفنها وتألفهن في مجالس الانس والارتياح، لا لتلكم الحبيبة الاثيرة من بينهن لديه. وهذا الأخير ربما يظهر من بعض قصائده فهو بحدث عن إحداهن فيقول في وصفها:

ريا رداح النوم خمصانة كأنها ادماء عطبول
يشفيك منها حين تحلو بها ضم إلى النحر وتقبيل

وذوق ريـــق طيـــب طعمـــه كـــأنـــه بـــالمســـك معلـــول

ثم يقول بعد ذلك:

فـــي نســـوة مثـــل المهـــا خـــرد تضيـــق عنهـــن الخـــلاخيـــل

فالحبيبة هي التي حدد صفاتها في الأبيات الثلاثة، وهي كما يحدث هذا البيت كانت (في نسوة مثل المها خرد) فهذه النسوة الخرد كانت من صويحباتها. أما مَن هي من بين تلكم الاسماء السابقة إذا صح أنهن متعددات؟ قد تكون هي عبدة كما تدل عليها هذه الأبيات التي ربما يشم فيها رائحة الصدق العاطفي، يقول:

رمتنـي ببعـد بعـد قـرب بهـا النـوى فبانـت ولمـا اقـض مـن عبـدة الـوطـر
ولمـا راقنـي خشيـة البيـن مـوجعـاً اكفكـف منـي ادمعـاً بيضهـا درر
اشـارت بـاطـراف إلـيّ ودمعهـا كنظـم جمـان خـانـه السلـك فـانتثـر
وقـد كنـت ممـا أحـدث البيـن حـاذراً فلـم يغـن عنـي منـه خـوفـي والحـذر

وما أدري ما رأيك بهذا المنظر الذي تمثله أبياته: حبيبان يضمر كل منهما أسمى عواطفه إلى الآخر، وقد رميا بالبعاد فلم يتمالك احدهما من ارسال دموعه فيرد عليه الآخر بطرفه ثم لا يتمالك من ارسالها أيضاً كما يرسل السلك الخائن حبات الجمان، تأملوا هذا التشبيه (كنظم جمان خانه السلك فانتثر)، ثم موقع كلمة (خانه) وما فيها من استعارة جميلة، فإنه من بدائع التشبيهات.

وهذا البيت الاخير بيت رائع جميل يصور حالته النفسية قبل حلول موعد الفراق بما فيه منْ شطره الثاني الذي أرسله بدافع إظهار الأسف على مواجهة الأمر الواقع. ويقال إن هذه المقطوعة ـ كما في الاغاني ـ قرئت على أعراب من بادية البصرة فأطربتهم، وقال قائلهم في شاعرها: هذا والله أحد

المطبوعين، لا والله ما بقي في هذا الزمان مثله.

وله أبيات اخرى ربما كانت أقرب من هذه إلى تصوير صدقه العاطفي، وما ادري أكانت من وحي عبدة هذه أم من وحي غيرها، وتشابهت الحوادث، يقول:

ما جرت خطرة على القلب مني	فيك إلا استترت عن اصحابي
من دموع تجري فإن كنت وحدي	خالياً أسعرت دموعي انتحابي
إن حبي إياك قد سل جسمي	ورماني بالشيب قبل الشباب
لو منحت اللقا شفا بك صبا	هائم القلب قد ثوى في التراب

وإن كنت اظن أنها مبالغ فيها إلى حد ما، وإلا فما عهدنا في صاحبنا سل الجسم وقد عمّر إلى السبعين كما لم يسجلوا أنه شاب قبل أن يبلغ مراحل الشباب وأنه ثوى في هيامه في التراب، وإذا صح ما حدث به فشيبه المبكر كان من الجنايات عليه، فقد قدر له أن يجتمع بها بعد حين، ولكن شيبه كان قد ذهب ببشاشته فلم يجر بينهما غير العتاب البريء، اسمعه يقول:

خلوت بها فلم المم بسوء	ولم يك بيننا غير العتاب
إذا ما المرء شاب له قذال	وعلته المواشط بالخضاب
فقد ولت بشاشته واودى	فقم يا باك فابك على الشباب

ونهاية الحديث في ذلك كله، أن بعض هذه الابيات وإن كان مشتملا على نفحات عاطفية قد تكون صادقة. ولكنها لا تصلح أن تكون منه عاشقاً مدلهاً كما يصوره بعض شعره، وكل ما هنالك أنه شاعر يطربه الجمال فيقول فيه أبياتاً عابرة تنمّ عن احساس وشعور، أما ان يبلغ به ذلك الاحساس مراتب الغرام فهذا مما لا نستطيع أن نؤمن به من هذا المقدار من الشعر.

والذي نظنه أن انغماره في ولاء وحب أهل البيت لم يكن ليترك في فؤاده المجال لتقبل امثال تلكم الصبوات، بل لم يكن له من الوقت ما يصرفه في التفكير بأمثال هذه الأمور، فقد شغله عن ذلك تتبع ونظم ما لأهل البيت من فضائل وما لهم من مآسي مؤلمة استحقّت أن يقول فيها ما أبدع فيه من قصائد:

الرثاء

واكثر من رثاه في شعره من أهل البيت هو سيد الشهداء أبو عبد الله الحسين عليه السلام. فقد بكاه بقصائد حرار يبدو فيها أثر الانفعال العاطفي الشديد.

واهم ما لدينا من رثائه فيهم تلكم اليائية التي أنشدها لإمامه الصادق عليه السلام فأبكاه وأبكى معه عياله من وراء الستار، ولدينا منها أكثر من عشرين بيتاً نذكر لك بعضها في هذا الحديث، يقول:

امرر على جدث الحسين وقل لأعظمه الزكية
أأعظما لا زلت من وطفاء ساكبة روية
ما لذّ عيش بعد رضّك بالجياد الأعوجية
قبر تضمن طيباً آباؤه خير البرية
آباؤه أهل الرياسة والخلافة والوصية
والخير والشيم المهذبة المطيبة الرضية

***

فإذا مررت بقبره فاطل به وقف المطية
وابك المطهر للمطهر والمطهرة الزكية
كبكاء معولة غدت يوماً بواحدها المنية

***

ثم يقول:

جعلـــوا ابـــن بنـــت نبيهـــم غـــرضـــاً كمـــا تـــرمـــى الـــدريـــة
لـــم يـــدعهـــم لقتـــالـــه إلا الجعـــالـــة والعطيـــة
لمـــا دعـــوه لكـــي تحكـــم فيـــه أولاد البغيـــة
أولاد أخبـــث مـــن مشـــى مـــرحـــاً وأخبثهـــم سجيـــة
فعصـــاهـــم وأبـــت لـــه نفـــس معـــززة أبيـــة
فغـــدوا لـــه بـــالســـابغـــات عليهـــم والمشـــرفيـــة
والبيـــض واليلـــب اليمـــانـــي والطـــوال السمهـــريـــة
وهـــم الـــوف وهـــو فـــي سبعيـــن نفســـاً هـــاشميـــة
فلقـــوه فـــي خلـــف لأحمـــد مقبليـــن مـــن الثنيـــة
مستيقنيـــن بـــأنهـــم سيقـــوا لأسبـــاب المنيـــة
يـــا عيـــن فـــابـــك مـــا حييـــت علـــى ذوي الـــذمـــم الـــوفيـــة
لا عـــذر فـــي تـــرك البكـــاء لـــك وأنـــت بـــه حـــريـــة

وهي في أسلوبها السمح ومواضيعها السامية ورقتهاوانبعاثها عن عاطفة صادقة تنتظم جملة أبياتها، تكاد تلتحق بالطبقة الأولى من شعره الجيد الجميل. ولها في الرثاء نظائر وان كانت لا تلتحق بها من حيث الجودة وسلامة البيان.

ورثاؤه لم يقتصر على الإمام الحسين، فقد رثى غيره من بني هاشم كزيد بن علي عليه السلام ومن غير بني هاشم كعباد بن حبيب بن المهلب من أخواله الأزديين، ولكنه لم يصل إلينا منه إلا أقل القليل وليس فيه ما يميزه عن غيره ليستحق منا أن نطيل فيه، فلنتحول عنه إلى ما يملكه من:

والذي اعتقده أنه كان غني الوطاب منه، فله من عصره وبيئته ونفسيته ما يشجعه عليه. فقد كانت العرب لا تفتأ تتغنى بأمجادها وتجعل ذلك هو المقياس في رفعة المكانة الاجتماعية وضعتها في مجال إعلان الكفايات. والسيد كان غنياً بأمجاده، فآباؤه حمير وأخواله الازد، وهما من أشرف القبائل وأغناها مآثر بإجماع النسابة.

وقد قرن كما قلنا فيما سبق بينهما في بعض قصائده في الفخر، ولكن شعره في ذلك على الأغلب ذهب ضحية من ضحايا العوادي الزمنية التي لم يخلص إلينا منها إلا القليل (وقد ذكرنا بعضه كما مر في موضعه من هذا الكتاب) وهو لا يتميز في أسلوبه أيضاً عن سائر شعره.

وفي هذا القليل ما يشعرنا بمدى اعتزازه بآبائه الحميريين. فقد كان ـ بحكم انتسابه إليهم ـ لا يرى في الناس من يستحق أن يتنزل إلى مديحه وإن كان من ذوي المال والمفاخر، اللهم إلا أسياده الغر من بني هاشم، اسمعه وقد طلب إليه الخليفة المنصور أن يمدح سوار بن عبد الله التميمي كيف رد عليه بهذه الابيات:

انـي امـرؤ مـن حميـر أسـرتـي	بحيـث تحـوي سـروهـا حميـر
آليـت لا أمـدح ذا نـائـل	لـه سنـاء ولـه مفخـر
إلا مـن الغـر بنـي هـاشـم	إن لهـم عنـدي يـداً تشكـر
إن لهـم عنـدي يـداً شكـرهـا	حـق وإن انكـرهـا منكـر

وهي تمثل اعتزازه بهذه القبيلة التي حلت اسرته منها في الصميم، فهي (بحيث تحوي سروها حمير). يريد أنها في مجمع المروءة والسخاء من هذه القبيلة، وقد آلى على نفسه أن لا يمدح غير الغر من بني هاشم لليد التي

أسدوها إليه ووجب عليه شكرها. فكأنه عندما قال للخليفة (إني امرؤ من حمير أسرتي) كفاه ذلك عن ذكر أي مبرر لعدم التنزل إلى مديح مثل سوار، وإن اضاف إليه بعد ذلك ذكر القسم في تركه المديح ما عدا بني هاشم، وقد بر بقسمه فلم نشاهد له مديحاً لغير هاشمي في النسب أو في الحب والولاء.

فهو هاشمي العقيدة في جل تجاربه الصادقة التي صدرت عن عاطفة الحب لديه، وهو هاشمي العقيدة حتى فيما صدر له من شعر عن:

عاطفة البغض

وهو ما يشكل القسم الثاني من شعره العاطفي حسب تقسيمنا السابق له. ولتقرير هذه الحقيقة الواقعة نبدأ فنفحص ما بأيدينا من هجائه لنرى دوافعه الأولية إليه.

وهذا الهجاء على اختلاف فيمن هجاه في القرب من زمانه والبعد عنه، وفي التعميم والتخصيص وفي مقامات الجد والهزل، يكاد يتّحد أغلبه في دوافعه الذاتية، فهو لا يصدر عن غير هذه العاطفة التي لم تجد لها في الغالب منفذاً في غير من يعتقد بهم التجاوز على حقوق أهل البيت من قدماء ومعاصرين. وتتميماً للبحث نقدم لك نماذج من كل ذلك لنلتمس فيه الناحية الفنية كما تقتضيه دراستنا لهذه الفصول.

قال في قصيدته المذهبة وقد وجه بحديثه هذا إلى من يختلف معه في الرأي من مختلف القبائل:

ولقد حلفت وقلت قولا صادقاً ... بالله لم آثم ولم اتريب
لمعاشر غلب الشقاء عليهم ... وهوى آمالهم لأمر متعب
من حمير أهل السماحة والندى ... وقريش الغر الكرام وتغلب
أين التطرب بالولاء وبالهوى ... أإلى الكواذب من بروق الخلب

أإلـــى أميـــة أم إلـــى شيـــع التـــي جاءت على الجمل الخدب الشوقب
تهـــوي مـــن البلـــد الحـــرام فنبهـــت بعـــد الهـــدوء كـــلاب أهـــل الحـــوأب

وفيها يقول:

أم تـــدب إلـــى ابنهـــا ووليهـــا بـــالمـــؤذيـــات لـــه دبيـــب العقـــرب

وهي أبيات تحمل في ثناياها جملة الخصائص التي ذكرناها في تعريف المذهبة فيما سبق. وليس فيها بعد ما ينبه عليه هنا أكثر من دلائل صدقه في تصوير عاطفته، فهو عندما يحلف ويقول لهؤلاء من أبناء قبيلته وغيرها لا يحلف ولا يقول إلا صادقاً، وماذا يقول:

أيـــن التطـــرب بـــالـــولاء وبـــالهـــوى أإلـــى الكـــواذب مـــن بـــروق الخلـــب

تأملوا هذه الاستعارة في (الكواذب من بروق الخلب) وموقع الحسن فيها، فهل اتفق لكم أن كنتم في بادية مجدبة لا ماء فيها ولا كلأ وأقبلت عليكم سحابة ذات برق فكيف تستقبلونها إذ ذاك؟ فإذا قدر لهذه السحابة أن تكون من السحاب الخداع فهل تستطيعون الصبر عليها بحال؟ لا أظن ذلك.

هكذا يرى شاعرنا الفحل موضع المشابهة بين أمية وما استعار لها من كلام، فهو لا يرى فيها أكثر من خداع في خداع، وهكذا يرى في أشياع صاحبة الجمل يوم البصرة أم المؤمنين التي أقبلت من البلد الحرام فنبهت في طريقها كلاب الحوأبيين يشير إلى الحديث النبوي المأثور مع السيدة عائشة (تنبحها كلاب الحوأب) وهذا التشبيه تأملوا موقعه في هذا البيت:

أم تـــدب إلـــى ابنهـــا ووليهـــا بـــالمـــؤذيـــات لـــه دبيـــب العقـــرب

فكلمة أم ترتبط في النفس غالباً بما يتسق مع العطف والحنان والرأفة بولدها، وينتظر المخاطب أن تدب بهذه الأمور إلى أبنائها، ولكنه يفاجئه

هذا الشاعر بنوع ذلك الربيب، وإذا بهذه الأم تدب بمؤذياتها إلى أولادها كما تدب العقارب بما تحمله من سموم.

ويذكر له الجاحظ في كتابه الحيوان لهذه الأم تشبيهاً أروع وأجمل وأظرف من هذا التشبيه يقول:

جاءت مع الاشقين في هودج تزجي الى البصرة أجنادها
كأنها في فعلها هرة تريد أن تأكل أولادها

وهو أقرب إلى تمثيل روحه المرحة من الأول.

وقال في هجاء قسم من بني أمية كانوا من معاصريه بعد القضاء على دولتهم وهو أقرب إلى الشماتة منه إلى الهجاء:

قم يا ابن مذعور فانشد: نكسوا خضع الرقاب بأعين لا ترفع
لولا حذار أبي بجير أظهروا شنآنهم وتفرقوا وتصدعوا
لا تجزعوا فلقد صبرنا فاصبروا سبعين عاماً والانوف تجدع
إذ لا يزال يقوم كل عروبة منكم لصاحبنا خطيب مصقع
ليسر مخلوقاً ويسخط خالقاً إن الشقي بكل شر مولع

وابن مذعور هو صاحبه وناقل شعره إلى هذا الوالي، وقد سبق له ذكر في الكتاب. والشماتة في هذه الأبيات ظاهرة، تأملوا (نكسوا خضع الرقاب بأعين لا ترفع) ولمن يقال هذا الكلام؟ لبني أمية الذين عبثوا في أمن الهاشميين مدة خلافتهم، وها هو ذا الزمان يديل من دولتهم، فإذا بشاعر الهاشميين يقول لهم (نكسوا خضع الرقاب) ولكنه يعود فيسري عنهم بهذا البيت:

لا تجزعوا فلقد صبرنا فاصبروا سبعين عاماً والانوف تجدع

المنطوي مع الشماتة على عتب مرير هو اوقع على نفوسهم من سفع

النار، يقول (لا تجزعوا فلقد صبرنا)، تأملوا: (فلقد صبرنا) فهي تنم عن لوعة دفينة في تلافيف قلوب الهاشميين الذين ظلوا يرزحون تحت اغلال ظلمهم وتعسفاتهم سبعين عاماً (والانوف تجدع). وخطيبهم يخطب بسب الإمام في كل جمعة ولماذا يفعل ذلك:

إن الشقيّ بكلّ شرّ مولع | ليسرّ مخلوقاً ويسخط خالقاً

تأملوا كيف لخّص تجربة عامة دقيقة وسيرها في مثل من أمثاله الجميلة فقال (إن الشقي بكل شر مولع). والحق ان ابياته هذه من خيار شعره الوجداني جمالاً وجزالة وحسن بيان.

وله في هجاء الأمويين الشعر الكثير وقد مر قسم منه في موضعه من هذا الكتاب فلا نطيل بذكره الآن.

ولم يقتصر في هجائه عليهم، فقد هجا من معاصريه جماعة كثيرة ولم يجامل أحداً في سبيل عقيدته إلا من تفرض عليه الضرورة ذلك وقليلاً ما تفرض عليه الضرورات.

هجا على سبيل الاجمال وهجا على سبيل التفصيل. هجا أهل البصرة من مخالفيه جميعاً، وهجا جملة من جلسائه منهم، فقال في أهل البصرة عندما خرج مع سوار للاستسقاء بيتيه الظريفين:

اهبط إلى الأرض فخذ جلمداً | ثم ارمهم يا مزن بالجلمد
لا تسقهم من وابل قطرة | فإنهم حرب بني أحمد

وقال في جماعة منهم وكانوا لا يشجعونه على الاسترسال في إنشادهم شعره:

قد ضيّع الله ما جمعت من أدب | بين الحمير وبين الشاء والبقر
لا يسمعون إلى قول اجيء به | وكيف تستمع الانعام للبشر

أقول ما سكتوا إنس فإن نطقوا   قلت الضفادع بين الماء والشجر

وهي أبيات فيها كثير من الملاحة وحسن البيان.

وهجا قوماً من الغلاة في علي فقال:

قوم غلوا في علي لا أبا لهم   واجشموا انفساً في حبه تعبا
قالوا هو الابن جل الله خالقنا   من أن يكون له ابن أو يكون أبا

وهجا على سبيل التفصيل سواراً والعتكي والخليفة المهدي واشخاصاً آخرين، قدماء ومحدثين كانوا يعارضونه بالفكرة فيضطرونه إلى هجائهم. وقد مر الكثير منه فلا نعيده الآن، وهو لا يفرق كثيراً في خصائصه عما ذكرناه.

ومن الحق أن نسجل له أن هجاءه الذي قرأناه لا ينمّ عن خبث في سريرته كما يحلو لبعضهم أن يصفه، وكل ما يدل عليه أن الرجل كان صاحب فكرة يعمل جهده على نشرها وتعميمها، ويناوئ كل من يختلف معه فيها، وهو عمل شريف يحمد عليه كل من يتصف به من الناس مهما كانت فكرته ما دام لم يسق إليه بغير دوافع الايمان الواقعي الذي لا تشوبه من الأغراض الدنيئة أية شائبة. وقد شرحنا في القسم الأول من هذا الكتاب بعض تلكم البواعث النفسية على ذلك فلتراجع.

خاتمة البحث

أما بعد، فهذه فصول كتبت لسلسلة «حديث الشهر» استجابةً لطلب كريم من صاحبها. وقد صادف هذا الطلب موسم محاضرات «مجمع منتدى النشر الثقافي في النجف» فاستغل مؤلفها هذه الفرصة واتّخذ من بعضها مواضيع للمحاضرات التي تقرر أن يلقيها في قاعة اللجنة. وقد قدر لهذا البعض أن ينال شرف استماع قسم من الاعلام وبشرف مناقشاتهم وملاحظاتهم العميقة.

ويرجو مؤلفه أن ينال الجميع شرف ملاحظات قرائه الأعزاء، وتيسيراً لحضراتهم نقدم هذا الثبت من المصادر التي اخذ عنها كاتب الرسالة مادته التأريخية الأولية، ليتسنى لهم التثبت بأنفسهم منها مسجّلين على أنفسنا أننا لم نعد ما جاء فيها، وإن رجعنا في مقام التثبت إلى أضعافها من المصادر، وقد حذفنا الهوامش التي تشير إلى أرقام الصفحات رعاية للاختصار، وسنلحقها إن شاء الله فيما بعد إذا وفّقنا إلى إعادة طبعته.

وأهم ما رجعنا إليه من كتب الأدب والتراجم:

١ ـ أغاني أبي الفرج، طبعة الساسي.

٢ ـ فوات الوفيات للكتبي، طبعة مصر.

٣ ـ طبقات ابن المعتز، طبعة أوروبا.

٤ ـ لسان الميزان لابن حجر، طبعة حيدر آباد.

٥ ـ روضات الجنان للخونساري.

٦ ـ رجال المامقاني.

٧ ـ رجال ميرزا محمد.

٨ ـ رجال أبي علي.

٩ ـ الكنى والألقاب للقمي.

١٠ ـ حديث الأربعاء لطه حسين.

١١ ـ الغدير للاميني، ج٢.

١٢ ـ أعيان الشيعة للعاملي، ج١٢.

١٣ ـ البيان والتبيين للجاحظ.

١٤ ـ عصر المأمون للرفاعي.

١٥ ـ أخبار السيد.

١٦ ـ معجم الشعراء للمرزباني.

١٧ ـ الفهرست لابن النديم.

١٨ ـ الفهرست للشيخ الطوسي.

١٩ ـ رجال النجاشي.

٢٠ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان.

ومن كتب التاريخ:

١ ـ الكامل لابن الأثير.

٢ ـ تاريخ الطبري.

٣ ـ مختصر تاريخ أبي الفداء.

٤ ـ مختصر تاريخ العرب لأمير علي.

٥ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد.

ومن كتب الحديث والكلام:

١ ـ الصحاح الست.

٢ ـ الفصل لابن حزم.

٣ ـ الملل والنحل للشهرستاني.

٤ ـ الفرق بين الفرق للبغدادي.

٥ ـ مختصر اعتقادات المسلمين للرازي.

٦ ـ الغدير في بقية أجزائه للأميني.

٧ ـ فرق الشيعة للنوبختي.

٨ ـ الفصول المختارة للشيخ المفيد.

هذا ولا يسعني في خاتمة البحث إلا أن أشكر لصاحب السلسلة، ما

أتاح لي من حديث وللأعلام من أعضاء المجمع، ما أبدوه من مناقشات وللقارىء الذي يبلغ هذا الموضع من البحث، ما صرفه في قراءته من وقت.

والسلام عليهم جميعاً ورحمة الله.

النجف الأشرف في ٣ ـ ذي الحجة ـ ١٣٦٩هـ

محمد تقي الحكيم

الفهرس

القسم الأول

القسم الثاني